أهوال المماليك في مصر

محمد عرموش

إضافة

أحوال المماليك في مصر

أحوال المماليك في مصر

محمد عرموش

الطبعة الأولى : ٢٠١٩

رقم الإيداع : ٢٥١٢٩ / ٢٠١٩

ISBN 978 -977-6739 -11-6

١٩٢ ص ٢٠ سم

الناشر: الحسناء للنشر والتوزيع

التوزيع لجميع أنحاء العالم



الإسكندرية

ج ٠ م ٠ ع

المراجعة اللغوية: عادل أبو الأنوار

غلاف وإخراج فني: أمير مصطفى

أحوال المماليك في مصر

محمد عرموش



هذا البحث ليس سردًا لتاريخ المماليك في مصر، بل هو محاولة لحل لغز يجول بخاطري منذ أن بدأت الاهتمام بقراءة العديد من الكتب التي تتعلق بالمماليك، سواء كتب مؤرخين معاصرين لهم أو كتب مؤرخين محدثين أو كتب رحالة ومستشرقين، وهذا اللغز يتمثل في كيف استطاع المماليك أن يحتضنوا العلماء وطلبة العلم ويتنافسوا في بناء أروع وأفخم المباني والمنشآت الموجودة حتى الآن، وكيف استطاعوا النهوض بالحالة الاقتصادية والتي تؤكدها جميع المراجع، فازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة كما ازدهر الفن الإسلامي والتصميم الهندسي حتى وصلوا إلى بناء ألغاز هندسية، بل كيف قاموا بتحقيق كل هذه الانتصارات الحربية وكيف كانت دولتهم مرهوبة الجانب، وكل هذا تم وسط صراعات على السلطة لم تتوقف تقريبًا طوال فترة حكمهم؟

ونحاول أيضًا توضيح أنواع المماليك وظروف نشأة كل نوع منهم وبرنامج الإعداد لكل نوع، وأنه يجب أن لا نضع كل أنواع المماليك في سلة واحدة، ونلقي الضوء على ما قدمه المماليك من حضارة في العصور الوسطى وما قدموه للأمة الإسلامية بشكل عام.

ثم كيف تدهورت أحوالهم إلى أن وصلوا إلى انحدار كامل في كافة المجالات تقريبًا، إلى أن ساءت سمعتهم وأصبحت كلمة المماليك للبعض لا تحمل إلا كل ما هو سلبي من معانٍ.

وهذا البحث ليس دفاعًا عن المماليك كما أنه ليس هجومًا عليهم، بل هو مجرد محاولة لإزالة العجب من اجتماع الصراعات مع الإنجازات في وقت واحد، أما الأحداث التاريخية الواردة في هذا البحث فقد دونت لدلالتها التي تأتي في سياق البحث وليس على سبيل التأريخ لها، كما أن الحديث عن المماليك بلا شك سيدفعنا لتدوين موضوعات كثيرة عن مصر ومكانتها وطبيعة نظام الحكم فيها منذ أقدم العصور وطبيعة شعبها وعلاقته بهذه الصراعات، وأسأل المولى عز وجل أن يوفّقني إلى تقديم بحث مفيد لكل من يهتم بمعرفة معلومات عن طبيعة المماليك وكيف كانت أحوالهم وكيف تأثروا بمصر وأثروا فيها، وليراجع موقفه منهم أو يؤكده، وليفخر بما يستحق أن يفخر به وليتعظ بما يجب أن يتعظ به من عبر، فلا يكون حكمه عليهم حكمًا عامًا مطلقًا دون تمييز، وأرجو أن يلتمس القارئ لي العذر على أي خطأ يجده في هذا البحث وأن يفترض فيه حسن النية، والله من وراء القصد وهو المستعان.

فكرة عامة عن المماليك

الانطباع:

ما هو أول شيء يجول بخاطرك عندما تستمع إلى كلمة (المماليك)؟

وما هو انطباعك عنهم؟ وهل هذه الكلمة من الكلمات سيئة السمعة بالنسبة لك؟

قد تذكّر البعض هذه الكلمة بالصراعات على السلطة، والبعض تذكره هذه الكلمة بالعنف والتآمر، وقد يتذكر البعض أيضًا الانتصارات والأمجاد والحروب الشرسة، وآخرون سيتذكرون الآثار الرائعة والعمارة الضخمة الفخمة، وهناك من سيتخيل ذلك العصر كما قرأ عنه دولة مرهوبة الجانب تنعم بازدهار اقتصادي وحضاري وعلمي.

لا شك أن كل هؤلاء على حق بشكل أو بآخر، فعصر المماليك عصر ثري جدًا بالأحداث، بل هو مزدحم بالملاحم والبطولات والمآسي أيضًا، ولكن عن أي نوعٍ من المماليك نتحدث؟ البحرية أم البرجية أم العثمانية؟ فليس من الإنصاف أن نضعهم جميعًا في سلة واحدة إذا جاز التعبير، يقول المتنبي عن أخت سيف الدولة:

وإن تكن تغلب الغلباء عنصرها   فإن في الخمر معنى ليس في العنب

نعم.. بكل تأكيد إن الخمر تختلف كل الاختلاف عن العنب بالرغم من أنه مصدرها، وكذلك المماليك منهم من كالخمر الجيدة ومنهم من كالخمر الرديئة، ولكنهم جميعًا من العنب، فحاول أن تتخيل معي عزيزي القارئ هذا المعنى، ولكن لماذا أو كيف حدث هذا الاختلاف؟

أصل فكرة المماليك ونشأتهم في العالم الإسلامي:

ولكن قبل توضيح الاختلاف بين أنواع المماليك تجدر الإشارة إلى أن المماليك عمومًا ليسوا بدعة أيوبية ابتدعها الملك الصالح نجم الدين أيوب، فقد تم الاستعانة بهم قبل ذلك أيام العباسيين والطولونيين بل والفاطميين أيضًا، ولكننا في هذا البحث معنيين بدولة سلاطين المماليك في مصر، وقد ارتبطت بداية هذه الدولة بالمماليك البحرية الذين أعدهم الملك الصالح للقتال، أما ما قبل ذلك من عمليات شراء للمماليك في العصور السابقة فقد كتب عنها المستشرق السير وليم موير في كتابه "تاريخ دولة المماليك في مصر" (اتخذ خلفاء بغداد منذ أجيال عدة عادة سيئة هددت عرش خلافتهم بالزوال؛ وهي جلب الألوف من العبيد ذوي الأسماء الحوشية من قبائل التركمان والمغول واستخدموهم حرسًا لهم ومادة لجيشهم ليناهضوا بهم الجنود العربية فاستفحل أمرهم وقتئذ وأصبحوا سدى الجيش ولحمته،

فكانوا يأتون عبيدًا فلا يلبثون أن يصبحوا ذوي الأمر والنهي في بيت الملك يشعلون نيران الفتن والقلاقل حتى عجلوا أجل الخلافة المنهوكة المنحلة، وسلك سبيلهم في ذلك خلفاء الفاطميين فأصابهم مثل ما أصاب من قبلهم، وقد نحت دولة الأيوبيين بعدهم هذا النحو، إذ كانوا غرباء في البلاد فاحتاجوا إلى الاعتزاز بأمثال هؤلاء، إن القبائل المقهورة في أواسط آسية كانت لا ترى غضاضة في بيع أفلاذ أكبادها للنخاسين الذين كانوا يعدونهم حسن المستقبل والسعادة في الغرب، وقد سهل عمل النخاسين ما كان يذاع عن الثروة الكبيرة التي يمكن الحصول عليها بأقل جهد، لذلك لم يقتصر الأمر على سبايا الحرب وأسارها، بل كان يتدفق على البلاد الغربية سيل من أبناء القبائل الشرقية لتهافت السلاطين والأمراء على شرائهم أحيانًا بأثمان باهظة)[1]، انتهى كلام المستشرق ولنا العديد من التحفظات عليه، فمنها أنه لم يدرك أن العرب قاموا بتأسيس دولة إسلامية وليس دولة عربية، والفرق كبير جدًا؛ لأن القومية الإسلامية تسع جميع الجنسيات في جميع مناصب الدولة، فكل من دخل الإسلام يمكنه أن يصل إلى قيادة الجيوش الإسلامية والوزارة والسلطنة أيضًا كما حدث لغير العرب، ولا ننسى أن دولة الروم ودولة الفرس على سبيل المثال كانت جيوشهم من الفرس والروم فقط.

---

١ نقلاً عن كتاب تاريخ دولة المماليك في مصر تأليف السير وليم موير، وهو كتاب مترجم يحمل رقم ٢٥ من سلسلة كتب صفحات من تاريخ مصر – مكتبة مدبولي.

أما جيش المسلمين منذ بدايته فكان يشمل خالد العربي وبلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي، أما التحفظ الثاني فهو أن الأيوبيين لم يشتروا المماليك لشعورهم بالغربة، وكيف يحدث ذلك وهم مسلمون وسط أمة إسلامية؟ أما باقي التحفظات فقد تبدو لك فيما بعد في سياق هذا البحث، ولكن تم تسجيل ما كتبه هذا المستشرق للدلالة فقط على وجود فكرة المماليك قبل عصر الملك الصالح بكثير، وقد حققوا للإسلام العديد من البطولات والانتصارات دون أن يكونوا عربًا ولكنهم دخلوا في العديد من الصراعات على السلطة فكيف تم لهم ذلك؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه في هذا البحث.

النشأة مختلفة:

يختلف المماليك باختلاف برامج الإعداد الخاصة بكل نوع منهم: فالمماليك البحرية مثلاً وهم النوع الأول من المماليك في مصر من ناحية الترتيب التاريخي، كان لهم برنامج إعداد خاص، كما أنهم كانوا يُجلبون صغارًا لا يعرفون شيئًا عن العلاقات الاجتماعية الطبيعية، فلا يوجد أب يعطف ويرعى ويُوجه، ولا أم حنون ترحم وتربي، ولا أشقاء أو عائلة من أي نوع، وكذلك ليس لهم وطن سوى مصر فهم لا يعرفون غيره ولا ينتمون لسواه، وانقطعت كل صلاتهم بجذورهم وأوطانهم وعائلاتهم،

فهم مثل عجينة طرية ساذجة يمكن وضعها في أي قالب وتشكيلها على الوجه الذي تريده،

أو الذي يريده الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي كان السبب في إحضارهم إلى مصر، وبنى لهم قلعة بجزيرة الروضة، وقام بتخصيص من يعلمهم ويؤدبهم ويدربهم ليكونوا قوة يستعين بها على قتال الأعداء وما أكثرهم.

تخيل معي أن تمتلك جيشًا خاصًا بك تشكله كما تشاء وتوجهه أينما تريد، ولكن لماذا؟

الأسباب:

لماذا فكر الملك الصالح في هذا الحل؟ وما هي المشكلة أساسًا التي تحتاج إلى حل؟

لقد كان هذا الملك من ملوك الدولة الأيوبية في مصر، وهذه الدولة تحديدًا كان قدَرها منذ اللحظة الأولى هو مواجهة الصليبيين منذ عهد مؤسسها الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي وحتى نهايتها، فكانت تصد الحملات الصليبية التي لم تتوقف خلال العصر الأيوبي بالكامل، فلم تكد تنتهي حملة حتى تبدأ حملة أخرى جديدة، وكأن هذه الدولة تواجدت في تلك الفترة من التاريخ لمواجهة الحملات الصليبية،

حتى أن الحملة الصليبية السابعة التي كانت فرنسية خالصة وبقيادة ملك فرنسا آنذاك الملك لويس التاسع استهدفت دمياط ولم تتوجه إلى بيت المقدس الذي هو أسمى أهدافها، فلقد أيقنوا أن الطريق إلى بيت المقدس يبدأ من القاهرة،

فسقوط الدولة الأيوبية هو السبيل الوحيد لاحتلال بيت المقدس، وكان الملك الصالح يعي ذلك جيدًا، وأدرك طبيعة وحجم المشكلة واحتاج لحل لها.

الحاجة لامتلاك قوة:

ولكن ألم يكن الجهاد حلاً مناسبًا؟ أقصد أن يُعلَن الجهاد لتعبئة الجيوش وحشدها لقتال أعداء الأمة كما كان يحدث في العصور الأولى للإسلام، أم أن روح الجهاد قد ضعفت أو أن الاعتماد عليها وحدها لن يكون مضمونًا[1] والعدو على الأبواب ولا بد من امتلاك قوة تحت يده في أي وقت بكل ما تحمله كلمة امتلاك من معانٍ، قوة لها عقول لا تعي سوى ما تفهمه منك وحدك ولها قلوب تحب ما تريد أنت أن تحبه، فالمماليك هم عبيد يدربون على القتال وليسوا عبيدًا للخدمة، فمن النادر أن تجد مملوكًا يعيش إلى ما بعد الأربعين، فالقتال هو الحرفة الوحيدة التي يجيدونها.

١ لم يكن التجنيد بنظامه الحالي قد عرف بعد فيما يبدو.

وكما ذكرت فهو ليس له أب يعرفه أو أم يبرّها أو شقيق ينصحه فكان لا بد أن تنشأ علاقات بديلة، فأبوه أصبح أستاذه الذي اشتراه ودرّبه على القتال وأمه هي شيخه الذي أدبه وأحفظه القرآن والأحاديث النبوية الشريفة، وأخوه هو دفعته أو خشداشه الذي جاء معه صغيرًا ونشأ معه، وهكذا أصبح له ولاء جديد بل قل ولاء وحيد، فهو ليس له قديم ليستبدله بجديد،

أما وطنه فهو مصر التي لا يعرف غيرها وأمته هي الإسلام وعقيدته هي الجهاد.

برنامج الإعداد أيام الملك الصالح:

وكان الملك الصالح قد أعد برنامجًا خاصًا ومميزًا للمماليك منذ صغرهم، فكما يقول الدكتور محمود الحويري في كتابه الممتع (مصر في العصور الوسطى): "فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم، وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالى ومعرفة الخط والتمرن بآداب الشريعة وملازمة الصلوات والأذكار.. فإذا صار إلى سن البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك، فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه،

وعندما ينتهي المملوك من تدريبه ويثبت جدارته ويصير محاربًا كفئًا يُنقل إلى خدمة السلطان ويتدرج في الرتب حتى يصير من الأمراء"[1]،

وهكذا قرر الملك الصالح أن يتعلم مماليكه تعاليم الدين وفنون القتال، فأصبح للمماليك معلمان أو مربيان لكل طائفة منهم أو الأدق أن نقول قدوتان إحداهما دينية والأخرى عسكرية، وقد أصبح كل منهما له شأن عظيم في حياة المماليك، ولكن لا تنسَ عزيزي القارئ فنحن نتحدث عن المماليك البحرية وهم النوع الأول من المماليك الذين لا نريد أن نضعهم في سلة واحدة مع غيرهم، فبعد ذلك كما سنرى لن يأتي المماليك صغارًا لتشكلهم، بل كبارًا يعرفون أوطانًا أخرى ولهم جذور ارتبطوا بها، كما أن برنامج الإعداد قد يكون مختلفًا، ويمكننا أن نستعرض معًا ما كتبه المقريزي عن المماليك لنتعرف على برامج إعداد أخرى.

١ مصر في العصور الوسطى "د. محمود الحويري" صفحة ٢٣٨، صفحة ٢٣٩.

بعض مما كتبه المقريزي[1] عن المماليك:

(الطباق بساحة الإيوان): "عمرها الملك الناصر محمد بن قلاوون وأسكنها المماليك السلطانية، وعمر حارة تختص بهم، وكانت الملوك تعنى بها غاية العناية، حتى أن الملك المنصور قلاوون كان يخرج في غالب أوقاته إلى الرحبة عند استحقاق حضور الطعام للمماليك ويأمر بعرضه عليه، ويتفقد لحمهم ويختبر طعامهم في جودته ورداءته، فمتى رأى فيه عيبًا اشتد على المشرف والاستادار ونهرهما وحل بهما منه أي مكروه، وكانت المماليك أبدًا تقيم بهذه الطباق لا تبرح فيها، فلما تسلطن الملك الأشرف خليل بن قلاوون، سمح للمماليك أن ينزلوا من القلعة في النهار ولا يبيتوا إلا بها، فكان لا يقدر أحد منهم أن يبيت بغيرها، ثم إنه الملك الناصر محمد بن قلاوون سمح لهم بالنزول إلى الحمام يومًا في الأسبوع، فكانوا ينزلون بالنوبة مع الخدام ثم يعودون آخر نهارهم، ولم يزل هذا حالهم إلى أن انقرضت أيام بني قلاوون، وكانت للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة: أولها أنه إذا قدم بالمملوك تاجره عرضه على السلطان ونزله في طبقة جنسه وسلمه لطواشي برسم الكتابة،

---

١ شيخ المؤرخين المصريين "أحمد بن علي المقريزي" المعروف باسم "تقي الدين المقريزي" ولد وتوفي في القاهرة 764هـ.845 هـ -1364) م - 1442 م (ممن اهتموا بالتأريخ بكل نواحيه، ترك عددًا من الكتابات التاريخية الفائقة الأهمية مثل: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار المعروف باسم خطط المقريزي أو الخطط المقريزية.

فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم، وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم، ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالى ومعرفة الخط والتمرن بآداب الشريعة وملازمة الصلوات والأذكار، وكان الرسم إذ ذاك ألا تجلب التجار إلا المماليك الصغار، فإذا شب الواحد من المماليك علمه الفقيه وأقرأه فيه مقدمة، فإذا صار إلى سن البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك، فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه، وإذا ركبوا إلى لعب الرمح أو رمي النشاب لا يجسر جندي ولا أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم، فيُنقل إذن إلى الخدمة ويتنقل في أطوارها رتبة بعد رتبة إلى أن يصير من الأمراء، فلا يبلغ هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه واشتد ساعده في رماية النشاب وحسن لعبه بالرمح ومرن على ركوب الخيل، ومنهم من يصير في رتبة فقيه عارف أو أديب شاعر أو حاسب ماهر، هذا ولهم أزمة من الخدام وأكابر من رؤوس النوب: يفحصون عن حال الواحد منهم الفحص الشافي ويؤاخذونه أشد المؤاخذة ويناقشونه على حركاته وسكناته، فإن عثر أحد من مؤدبيه الذي يعلمه القرآن أو الطواشي الذي هو مسلم إليه أو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه، على أنه اقترف ذنبًا أو أخلّ برسم أو ترك أدبًا من آداب الدين أو الدنيا قابله على ذلك بعقوبة مؤلمة شديدة بقدر جرمه، فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك وقادة يجاهدون في سبيل الله وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل ويردعون من جار وتعدى، وكانت لهم الإدارات الكثيرة من اللحوم والأطعمة والحلاوات والفواكه والكسوات الفاخرة والمعاليم من الذهب والفضة بحيث

تتسع أحوال غلمانهم ويفيض عطاؤهم على من قصدهم، ثم لما كانت أيام الظاهر برقوق راعى الحال في ذلك بعض الشيء إلى أن زالت دولته في سنة إحدى وتسعين وسبعمائة، فلما عاد إلى المملكة رخص للمماليك في سكنى القاهرة وفي التزوج فنزلوا من الطباق من القلعة ونكحوا نساء أهل المدينة وأخلدوا إلى البطالة ونسوا تلك العوايد، ثم تلاشت الأحوال في أيام الناصر فرج بن برقوق وانقطعت الرواتب من اللحوم وغيرها حتى عن مماليك الطباق مع قلة عددهم، ورتب لكل واحد منهم في اليوم مبلغ عشرة دراهم من الفلوس، فصار غذاؤهم في الغالب الفول المصلوق عجزًا عن شراء اللحم وغيره.

هذا وباقي الجلب من المماليك إنما هم الرجال الذين كانوا في بلادهم ما بين ملاح سفينة ووقاد في تنور خباز ومحول ماء في غيط أشجار ونحو ذلك، واستقر رأي الناصر على أن تسليم المماليك للفقيه يتلفهم بل يُتركون وشئونهم، فبدلت الأرض غير الأرض وصارت المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدرًا وأشحهم نفسًا وأجهلهم بأمر الدنيا وأكثرهم إعراضًا عن الدين ما فيهم إلا من هو أزنى من قرد وألص من فأرة وأفسد من ذئب، لا جرم أن خربت أرض مصر والشام من حيث يصب النيل إلى مجرى الفرات بسوء إيالة الحكام وشدة عبث الولاة وسوء تصرف أولي الأمر، حتى أنه ما من شهر إلا ويظهر من الخلل العام ما لا يُتدارك فرطه،

وبلغت عدة المماليك السلطانية في أيام الملك المنصور قلاوون ستة آلاف وسبعمائة، فأراد ابنه الأشرف خليل تكميل عدتها عشرة آلاف مملوك وجعلهم طوائف، فأفرد طائفة الأرمن والجركس وسماهم البرجية؛ لأنه أسكنهم في أبراج بالقلعة، فبلغت عدتهم ثلاثة آلاف وسبعمائة، وأفرد جنس الخطا والقبجاق وأنزلهم بقاعة عرفت بالذهبية والزمردية وجعل منهم جمدارية وسقاة وسماهم خاصكية، وعمل البرجية سلاحدارية وجمقدارية وجاشنكيرية وأوشاقية، ثم شغف الملك الناصر محمد بن قلاوون بجلب المماليك من بلاد أزبك وبلاد توريز وبلاد الروم وبغداد، وبعث في طلبهم وبذل الرغائب للتجار في حملهم إليه، ودفع فيهم الأموال العظيمة، ثم أفاض على من يشتريه منهم أنواع العطاء من عامة الأصناف دفعة واحدة في يوم واحد، ولم يراعِ عادة أبيه ومن كان قبله من الملوك في تنقل المماليك في أطوار الخدم حتى يتدرب ويتمرن كما تقدم وفي تدريجه من ثلاثة دنانير في الشهر إلى عشرة دنانير ثم نقله من الجامكية إلى وظيفة من وظائف الخدمة، بل اقتضى رأيه أن يملأ أعينهم بالعطاء الكثير دفعة واحدة فأتاه من المماليك شيء كثير رغبة فيما لديه، حتى كان الأب يبيع ابنه للتاجر الذي يجلبه إلى مصر، وبلغ ثمن المملوك في أيامه إلى مائة ألف درهم فما دونها، وبلغت نفقات المماليك في كل شهر إلى سبعين ألفًا ثم تزايدت حتى صارت في سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، مائتين وعشرين ألف درهم"[1].

١ نقلاً عن كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط

النزعة الدينية:

أما القاسم المشترك الأعظم لجميع المماليك على اختلاف أنواعهم وظروف نشأتهم فهو التدريب على القتال والولاء للأستاذ، أما باقي المعارف الأخرى أو المشارب أو البيئات الحاضنة فتختلف من نوع إلى آخر، وإن كانت العقيدة الدينية من الثوابت الراسخة لديهم جميعًا تقريبًا، فنكاد نلمحها في تصرفاتهم وفي عمائرهم وحتى في صراعاتهم على السلطة، فكل منهم كان حريص على أن يستمد شرعيته في الحكم من منظور ديني كما سنرى، فنجد مثلاً أن المماليك عندما تولوا الحكم كملوك وسلاطين لا يطمئن أحدهم إلا إذا تم تقليده السلطنة في حضور الخليفة والقضاة الأربعة[1] ومباركتهم، كما نلاحظ أيضًا هذه النزعة الدينية عندما نقرأ في كتب التاريخ أن كثيرًا منهم بعد أن يتولى الحكم ويصبح سلطانًا يقوم باستدعاء كبار رجال دولته والأمراء ليحلفوا له بالأيمان المؤكدة على عدم الغدر به أو التآمر على خلعه من السلطنة، وبغض النظر عن مدى صدق هذه الأيمان إلا أنها مؤشر يوضح تأثير الدين في سلوكياتهم.

المقريزية – الجزء الثالث – تأليف تقي الدين أحمد بن على المقريزي – تحقيق محمد زينهم، مديحة الشرقاوي – مكتبة مدبولي.

١ تم استضافة الخليفة العباسي في مصر في عهد الظاهر بيبرس، ولم يحدث ذلك أثناء حكم الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية رغم محاولة أحمد بن طولون وأبو بكر الإخشيد إقناع الخليفة باتخاذ مصر مقرًا للخلافة العباسية، بينما نجح المماليك في ذلك، أما القضاة الأربعة فمقصود بهم قضاة المذاهب الأربعة للسنة، فقد كان هناك قاض لكل مذهب (الشافعي ومالك وابن حنبل وأبي حنيفة).

أمثلــة علــى النــذور والعمــائر والصــدقات في العصــر المملوكي:

بـل إن مـن أوضـح الأمثلـة على توغـل هـذه المشـاعر والعقائـد في نفوسـهم النـذور التي كـانوا ينـذرونها إذا كـانوا في ضـيق أثنـاء صـراعاتهم، وقـد سـجل المؤرخـون أمثلـة على بعـض هـذه النـذور، ومن أشهرها نذر الملك المؤيد شيخ المحمودي الذي كان مسجونًا في سجن من أبشع السجون في ذلك الوقت والذي كان يسمى خزانة شمايل بجوار باب زويلة، حيث نذر نذرًا وقام بالوفاء به بالفعل بعد أن تولى السلطنة، حيث قام ببناء مسجده الشهير الموجود إلى الآن في نفس موضع السجن الذي كان مسجونًا فيه، أما الصراع على السلطة نفسه فكانوا يطلقون عليه كلمة (فِتنة) وأثناء حدوث إحدى هذه الفتن اختفى الأمير لاجين المنصوري داخل مئذنة جامع ابـن طولـون لفترة حتى[1] انتهـاء هـذه الفتنـة، وكـان هـذا الجـامع الضخم خربًا ومهجورًا في ذلك الوقت ولا تقام فيه الشعائر، فأخذ الأمير لاجين على نفسه عهدًا ونذر نذرًا أن يعمر هذا الجامع ويرممه إذا انتهت هذه الفتنة بسلام ووصل للسلطة وقد كان،

فعندما صار ملكًا على مصر قام بالوفاء بهذا النذر.

---

١ كانت هذه الفتن تنتهي بصاحبها إلى القبر أو العرش أو الهروب أو النفي أو السجن، فليس من السهل أن يقرر أحد الأمراء أن يدخل في صراع للوصول إلى العرش فهي مغامرة كبرى غير مأمونة.

وليس أدل على تمكن الدين من المماليك كدليل العمائر الإسلامية، فقد كانوا يتنافسون فيما بينهم على بناء الأسبلة والتكيات والمدارس والمساجد والخوانق والكتاتيب، ويوقفون عليها الأوقاف لتستمر بعد وفاتهم، بل إن من الأمثلة الطريفة التي تؤكد لجوءهم وتضرعهم إلى الله سبحانه وتعالى وهم في قمة الضعف الإنساني عندما يمرض أحدهم مرضًا شديدًا يقوم باختيار أفضل فرس لديه من خيوله - وما أدراك ما الخيول بالنسبة لهم – ويرسله ليعرض للبيع ويتصدق بثمنه كاملاً من منطلق ما ورد في الأثر الشريف (داووا مرضاكم بالصدقة)، فإلى هذا الحد كان اعتقادهم ويقينهم وتوكلهم.

الخيول المملوكية:

وعلى ذكر[1] الخيول لا بد لنا أن نلقي الضوء على أهميتها عند المماليك، فعن أهمية الخيول في العصر المملوكي كتب الكاتب الكبير جمال الغيطاني في كتابه الممتع "ملامح القاهرة في ألف سنة" ما ملخصه:

"نتجه إلى ميدان الرميلة الممتد تحت قلعة الجبل، ربما كان التجول في سوق الخيل مدخلاً طبيعيًا إلى عالم رحب وثيق الصلة بكافة تفاصيل الحياة خلال العصور الوسطى،

١ لاحظ عزيزي القارئ أن الكتابة تنتقل أحيانًا من موضوع إلى آخر عندما تأتي المناسبة للحديث عنه من خلال هذا البحث لتعم الفائدة، وسيتم مراعاة العودة دائمًا للسياق العام للبحث بقدر الإمكان.

لم يتغير موقع هذا السوق طوال العصر الوسيط، ترتفع صيحات الدلالين والمنادين، وأنواع عديدة من الخيول لكنها موزعة على ثلاثة أقسام رئيسية، الخيول العربية، أنفسها وأغلاها قيمة مطلوبة للسباق وللحاق، مصدرها بلاد الحجاز ونجد واليمن والشام والعراق ومصر وبرقة، والنوع الثاني تركي أو أعجمي، وكانت تسمى الهماليج أو الأكاديش، مرغوبة لصبرها على السير الحثيث وسرعة المشي، النوع الثالث مولّد بين العربية والأعجمية، إذا كان الأب أعجميًا والأم عربية قيل له هجين وهي وسط بين النوعين السابقين، أما الخيول الإفرنجية فهي أفشل الأنواع وأرخصها ثمنًا هنا، ولا يُقبل عليها أحد، الخيول العربية نفسها تنقسم إلى عدة أنساب، الحجازية أشرفها، والنجدي أيمنها والمصري أفرهها، والغربي أنسلها، وعندما ترد السوق خيول مؤصلة فإنها تعرض على السلطان.

كان السلاطين مهتمين جدًا باقتناء أنفس الأنواع وأنقى الأنساب، كان الناصر بن قلاوون شغوفًا بجلب الخيول العربية،

وأفرد لها دفاتر تسجل أنساب الخيل كما تسجل أنساب الآدميين، وعندما مات ترك خلفه ما يقرب من ثمانية آلاف فرس في اصطبلاته، أما السلطان برقوق فقد خلف وراءه ستة آلاف فرس، كان اقتناء الخيول والاهتمام بها مظهرًا من مظاهر القوة والجاه، ولا عجب، فقد قام النظام المملوكي على دعامتين، الفارس والفرس،

ربما كان هذا سببًا قويًا في أهمية سوق الخيل وقربه من قلعة الجبل مركز الحكم ورمز السلطة في مصر وقتئذ، في السوق نرى ألوانًا عديدة، غير أن الألوان الأساسية أربعة، وما عدا ذلك متفرع منها:

الأول: اللون الأبيض، وكان سلاطين المماليك يفضلونها، ويطلقون عليها الفرس البوز، ويذكر ابن إياس في "بدائع الزهور" أن السلطان الغوري كان يخرج في المواكب ممتطيًا فرس بوز أبيض.

الثاني: هو الأسود، وكل فرس شديد السواد كان يطلق عليها أدهم.

والثالث: هو اللون الأحمر، ويسمى الكُميت، واللون الرابع هو الأصفر.

ومعرفة ألوان الخيل ضرورية بالنسبة للفرسان، وأحياناً كان بعض الفرسان يحرصون على ركوب فرس ذات لون معين في كل يوم، ولهذه الألوان علاقة بالتفاؤل، ولا يقتصر التفاؤل والتشاؤم على اللون العام للفرس، وإنما يتعلق الأمر ببعض العلامات في جسده، فالغرة، أي البياض الذي يكون في وجه الفرس،

إذا استدارت أو كانت تشبه حرف الحاء فإنها تدل على اليمن والبركة، وإذا أصاب البياض خدًا دون الآخر فإن الفرس يكون مكروهًا ويتشاءم به، كذلك إن غطت عينًا دون الأخرى، فيصبح من المتوقع أن تُقتل مع صاحبها، أما إذا غطت العينين فإنها تقهر مع فارسها، وإن مالت إلى اليمين تدل على الشؤم،

وإلى اليسار فإنها تدل على المكاسب، وإن وصلت إلى الأنف فإنها تدل على البركة والخير،

وفي سنة ٨٠٢هـ ١٣٩٩م، كُسِر الأمير تنم وسقط أسيرًا، واستفسر المؤرخ ابن تغرى بردى عن سبب وقوع الأمير عن فرسه ثم أسره، فقالوا كان في فرسه شؤم، وأشاروا إلى هذه العلاقة، وقالوا: إن أصحابه نهوه عن ركوبه فأبى، وفي سوق الخيل نلاحظ أن المشترين والفاحصين يطلبون التحديق لاختبارها وفحصها، والتفرس له قواعد، فلا بد أن ينظر إلى الفرس في جميع حالاته خاصة أثناء الجري، والفرس الجيد يعرف من شدة نفَسه، وحِدّة نظره، وصغر كعبيه، ورقة جحافله، وقصر ساقيه، وقلة التوائه، ولين التفاته، وإذا نظر الإنسان إلى آثار قوائمه وقت جريه وقاس ما بينهما، فإذا كانت ستة أذرع يكون فرسًا سباقًا، كما يجب أن يكون صافيًا عند الصهيل فهذا دليل على صحة الرئتين، وعلامات أخرى عديدة كان المتفرسون يعرفونها وسجلتها كتب الفروسية"[١].

ولعلك أدركت عزيزي القارئ بعد هذا العرض ماذا تعني الخيول بالنسبة للمماليك حتى يتم بيع أفضلها والتصدق بثمنه.

فإذا كانت سلوكيات المماليك وقراراتهم وصراعاتهم ومنشآتهم لها صبغة دينية أو هكذا تبدو على الأقل، فيمكننا أن نؤكد أن الدين كان من الثوابت الراسخة في نفوسهم، أما القتال فهو حرفتهم الوحيدة التي تعلموها.

---

١ نقلاً باختصار عن كتاب ملامح القاهرة في ألف سنة للكاتب الكبير جمال الغيطاني، الناشر نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الخامسة سبتمبر ٢٠٠٧، مقتطفات من صفحة ٥٤ إلى صفحة ٥٦

مكانة علماء الدين لدى المماليك:

وكان للعلماء المسلمين مكانة خاصة جدًا لدى المماليك، وعن هذا الموضوع كتب الدكتور محمود الحويري ما ملخصه:"إذا كان المماليك قد كونوا طبقة عسكرية شديدة البأس.... فقد أدى ذلك إلى ظهور علماء الدين المصريين الذين وقفوا أمام استبداد المماليك، وتكلموا بلسان الشعب المصري باعتبارهم من أبنائه، ودافعوا عنه ضد كل طغيان، وبلغ رجال الدين في دولة المماليك مكانة سامية، جعلت سلاطين المماليك يستمعون إلى شكواهم ويجيبون طلباتهم، بل توجسوا من بعضهم خيفة، وليس أدل على ذلك من أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام كان يزجر السلطان الظاهر بيبرس عن المظالم وينهاه عنها."[1]

كما أن "قاضي قضاة الحنفية شمس الدين الحريري كان شديد السطوة لا تأخذه في الله لومة لائم، وكانت الأمراء تخافه، ولقد ذكر لابن بطوطة أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قال يومًا لجلسائه: "إني لا أخاف أحدًا إلا شمس الدين الحريري" ومن هذا المنطلق كان المماليك يقربون علماء الدين والقضاة المصريين، حرصًا منهم على تدعيم سلطتهم بالنفوذ الديني"[2]، "وكثيرًا ما كان السلطان المملوكي يرجو نصح علماء الدين باعتبارهم أهل الحل والعقد،

---

١ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة ٢٤١

٢ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة ٢٤١

ولا يقوم بحرب أو يتخذ قرارات عليا هامة تمس أمور الدولة إلا بعد استشارتهم، هذا في الوقت الذي كان رجال الدين يعتبرون سلاطين المماليك درع الأمة الإسلامية وأن احترامهم من احترام الإسلام"[1].

شرعية الفراغ:

ولكن لماذا كانت كل هذه الصراعات على السلطة؟ بل كيف وصلت السلطة إليهم؟ وعلى أي أساس وأي شرعية تولوا حكم مصر بل قل حكم مصر والشام والحجاز والعالم الإسلامي كله تقريبًا في ذلك الوقت؟ إن الإجابة على هذا السؤال قد تفتح لنا مجالاً للإجابة على السؤال السابق له، بمعنى أن الذي له الحق في تولي الحكم هو الذي سيدخل في صراع مع من ليس له الحق في توليه.

ولكن هل كان للمماليك الحق في تولي الحكم؟ أم أنها شرعية الفراغ؟

من منطلق أنك إن تركت فراغًا فلا تلوم أحدًا إذا شغله، لقد تولى المماليك الحكم وتصدروا المشهد في العالم الإسلامي بعد انتصارهم في معركة المنصورة[2] على الصليبيين، وكانت الحملة الصليبية السابعة فرنسية خالصة وبقيادة ملك فرنسا لويس التاسع الذي تم أسره،

١ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة ٢٤٢

٢ كانت القوات مملوكية تحت قيادة أيوبية.

وقد مات الملك الصالح أثناء المعارك بعد أن مرض مرضًا شديدًا، وكما هو معروف قامت زوجته شجرة الدر بإخفاء خبر وفاته حتى لا يؤثر ذلك على معنويات الجيش، وأرسلت لاستدعاء ابنه توران شاه الذي كان خارج مصر، وحضر لاستكمال المعركة، ودون الخوض في التفاصيل انتهت المعركة بانتصار ساحق على الصليبيين ولكن بقيادة أيوبية، فالدولة القائمة حينئذ كانت الدولة الأيوبية، وكانت تابعة للخلافة العباسية في بغداد، حيث كان الخليفة العباسي رمزًا للأمة الإسلامية أكثر منه حاكمًا لها، فكما نعلم جميعًا أن الخلافة العباسية بدأت بداية قوية على يد خلفاء أشداء كأبي جعفر المنصور وهارون الرشيد والمأمون والمعتصم وهو ما يسمى بالعصر العباسي الأول، ثم بدأ الضعف تدريجيًا إلى أن أصبح الوزراء والأمراء يسيطرون على الدولة، بل وصل الأمر إلى أن أصبح هناك ملوك وسلاطين يسيطرون على كافة الأمور، ولكن في ظل الخلافة العباسية التي كانت تمنحهم شرعية الحكم.

فلا يتم تقليد ملك أو سلطان إلا إذا رضي عن ذلك الخليفة في بغداد حتى ولو كان مجرد إجراء رمزي ولكن مهم جدًا لأي حاكم في العالم الإسلامي، بعد أن تنازل الخليفة العباسي[1] عن معظم صلاحياته للقادة والملوك الذين يحكمون شتى بقاع العالم الإسلامي.

---

١ لقد وصل الأمر بأحد الخلفاء العباسيين إلى أن أنشد شعرًا يعبر عن أحواله كما ورد بكتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي:

أليس من العجائب أن مثلي - - - يرى ما قل ممتنعًا عليه

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعًا - - - وما من ذاك شيء في يديه

إليه تحمّل الأموال طرًا - - - ويُمنع بعضَ ما يجبى إليه

توران شاه ومماليك أبيه:

وفي مصر أثناء معركة المنصورة كان الجيش مملوكيًا والدولة أيوبية والخلافة عباسية، ومات الملك الصالح وتولى ابنه توران شاه أو الملك المعظم توران شاه الحكم، وشتان بين الابن وأبيه، لقد كان الملك الصالح بالنسبة للمماليك أستاذهم ومعلمهم وقدوتهم وسيدهم وحبيبهم إذا جاز التعبير، وقل ما شئت عن علاقته بهم، وخاصة مع كبار الأمراء والقادة الذين نالوا شرف القيادة والإمارة على يديه، فجعل منهم أمراء وقدمهم على آلاف المقاتلين وكان يعاملهم معاملة تليق به وبهم،

وكانوا يدينون له بالولاء حتى بعد أن أصبحوا ملوكًا كان لقب كل منهم ينتهي بكلمة الصالحي أي ينسب نفسه للملك الصالح، ومثال على ذلك لقب الأمير بيبرس عندما تولى الحكم، كان يدعى السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي.

هكذا كان الملك الصالح نجم الدين أيوب رمزًا كبيرًا قد تؤدي إشاعة خبر وفاته إلى انهيار معنويات مماليكه، وجاء توران شاه الذي على ما يبدو لم يكن في حكمة أبيه وتعامل مع مماليك أبيه معاملة لا تليق، وأشاع ضعفاء النفوس إشاعة خطيرة ومدمرة أنه سوف يتخلص من هؤلاء القادة وأنه يحتقرهم وسيقتلهم جميعًا، فقتلوه شر قتلة، ويقال إنه قتِل طعنًا وحرقًا وغرقًا، وأيًا ما كان قد قيل عن أنه سيقتلهم ويتخلص منهم حقيقة أم من خيال ضعاف النفوس، فلا شك أن معاملته السيئة لهم كانت دليلاً ساعد أو ساهم في تأكيد هذه الشائعات.

سهولة تشويه عصر المماليك لمن يريد:

وضعاف النفوس موجودون في كل عصر وكل مكان، وقد ذخر بهم عصر المماليك الذين غالبًا يواجهون نية القتل بالقتل، وسوف يصبح هذا المبدأ طوال تاريخهم فيما يبدو، وهي قاعدة لا تعرف الرحمة، والمبرر بالطبع هو الدفاع المشروع عن النفس والله أعلى وأعلم، ولا يمكن التعميم دون التحقق من كل حالة على حدة، ومن يريد تشويه تاريخ المماليك لن يجد أي صعوبة في ذلك، بل على العكس سيجد ذلك ميسرًا، والأمثلة كثيرة وواضحة على هذا النوع من الصراع الذي سنحاول أن نفهم أبعاده ودوافعه وكيف تزامن مع ما حققوه من إنجازات في كافة المجالات، إنه أمر محيّر جدًا ومدهش ومثير، فكيف حقق هؤلاء المتنافسون كل هذه الانتصارات الساحقة وتركوا لنا كل هذه المنشآت والآثار الرائعة، ويتم تصنيف أضخم الموسوعات العلمية في العصور الوسطى برعايتهم، وتزدهر التجارة والصناعة والزراعة وتنتعش أحوال الشعب الذي كان بعيدًا عن كل هذه الصراعات؟

المماليك والجنسية المصرية
من وجهة نظر د. محمود الحويري:

الدكتور الحويري له رأي في المماليك أود أن تعرفه، فهو يعتبر أنهم كما ورد في كتابه بالحرف الواحد "أنهم جاءوا إلى مصر كرقيق من بلاد متعددة وأمم شتى وأصول عرقية متنوعة، ووجه الأهمية هنا أنهم أتوا أطفالاً صغارًا انقطعت حبالهم نهائيًا بمواطنهم الأصلية وتربوا تربية إسلامية وتعلموا اللغة العربية، ولم يعودوا يعرفون لهم وطنًا غير مصر واستقروا فيها للأبد، ومهما قيل في أن المماليك أجانب عن مصر وأنهم ولدوا في أرض غير إسلامية، أو أنهم يرجعون في أصولهم إلى دماء غير مصرية فإن هذا القول مردود عليه؛ لأن الانتماء الحقيقي للوطن يقوم أساسًا على خدمة هذا الوطن والدفاع عنه ورعاية مصالحه، بغض النظر عن الجنس الذي يعيش فوق أرضه أو الأصول التي تحدر منها، وهي حقيقة أثبتها التاريخ على مداه الطويل، فليس ثمة وطن يجري في عروق أبنائه دماء واحدة نقية خالصة، ومصر بموقعها الجغرافي وتاريخها الطويل قد استقبلت أجناسًا عديدة تركت أثرها فيها بصورة ما، وإن كانت مصر قد امتصت تلك الأجناس وطبعتها بطابعها وشخصيتها، فصارت مصرية، وهذه الحقيقة تنطبق على المماليك في مصر، فهم الذين حموا شعبها وحاربوا باسمه وحافظوا على استقلاله ضد الغزاة،

وينبغي ألا ننسى أن المماليك منذ ظهورهم على مسرح الأحداث في مصر ومنطقة الشرق الأوسط[1] قد ارتبطوا بالشرعية التي منحتها لهم الخلافة الإسلامية بوصفهم حماتها والمدافعين عنها وعن الإسلام، ولذلك من الظلم الفادح أن نعتبر المماليك أجانب عن مصر"[2]، انتهى كلام الدكتور الحويري وهو رأي مهم رأيت أن أذكره لك عزيزي القارئ كما هو، وعلى أي حال فإن المماليك كانوا في فترة ما هم القوة الوحيدة الحقيقية في الأمة الإسلامية بالكامل في وقت كانت فيه الأمة في أمسّ الحاجة إلى من يدافع عنها ضد الأخطار المحيطة بها، وكانوا على مستوى المسئولية في الدفاع عن المقدسات الإسلامية مهما قيل عنهم بعد ذلك، فقد حملوا راية الجهاد في سبيل الله وهي راية يمكن أن يحملها أي مسلم مهما كانت جنسيته أو وطنه. وقد كان عصرهم من أفضل العصور التي مرت على مصر، فلو تأملنا ما كتبه الرحالة والمؤرخون والعلماء عن عصر المماليك سنجد العجب العجاب كما يقال.

---

١ اصطلاح الشرق الأوسط يعتبر اصطلاحًا حديثًا نسبيًا لأن الأمة العربية الإسلامية كانت ولا تزال من الناحية الجغرافية مركز العالم، ولكن كما نعرف جميعًا فإن القوة هي التي تحدد مكان كل دولة بالنسبة لها، فإذا كانت أكبر قوة في أقصى الغرب فإن العالم كله يتحول بالنسبة لها إلى شرق (فيصبح شرق، وشرق أدنى وشرق أوسط وشرق أقصى) فالموقع يتحدد طبقًا لنسبته إلى الدول الكبرى وبالتالي أصبحنا الآن في الشرق الأوسط بالنسبة لهم، ولكن كان وضعنا الطبيعي هو مركز العالم كموقع وكقوة وحضارة واقتصاد وعلم والله أعلم.

٢ مصر في العصور الوسطى (د. محمود الحويري) صفحة ٢٤٠

زيارة ابن خلدون[1] لمصر:

زار ابن خلدون العالم الشهير مصر سنة ٧٨٤ هـ (نوفمبر ١٣٨٢م) في عصر دولة المماليك الجراكسة، وكانت هذه أول مرة يري فيها القاهرة، فقال: "فانتقلت إلى القاهرة أول ذي القعدة فرأيت حضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر وإيوان الإسلام وكرسي الملك تلوح القصور والأواوين في جوه، وتزهر الخوانق والمدارس بآفاقه وتضيء البدور والكواكب بين علمائه، ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر، لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت"[2]، إلى هذا الحد انبهر ابن خلدون بما رآه في القاهرة، فلقد رأى حضرة الدنيا وبستان العالم على حد تعبيره وهو شيء محير حقًا.

---

١ عبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي 1332 - 1406م مؤرخ من شمال أفريقيا، تونسي المولد أندلسي الأصل، كما عاش بعد تخرجه من جامعة الزيتونة في مختلف مدن شمال أفريقيا، حيث رحل إلى بسكرة وغرناطة وبجاية وتلمسان، كما تَوَجَّهَ إلى مصر، حيث أكرمه سلطانها الظاهر برقوق، ووَلِيَ فيها قضاء المالكية، وظلَّ بها ما يناهز ربع قرن (٧٨٤-٨٠٨هـ)، حيث تُوُفِّيَ عام ١٤٠٦ عن عمر بلغ ستة وسبعين عامًا ودُفِنَ قرب باب النصر بشمال القاهرة تاركا تراثا ما زال تأثيره ممتدًا حتى اليوم. ويعتبر ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع الحديث وأبًا للتاريخ والاقتصاد.

٢ مصر في العصور الوسطى (د. محمود الحويري) صفحة ٢٨٥، ٢٨٦

فكيف يكون ذلك مع كل هذه الصراعات والفتن التي لو تخيلناها كما يصفها البعض بأسلوب يجعلك تشعر أنها قد تتسبب في تدمير الحضارات لا النهوض بها، ولكن لا شك أن هذه الصراعات كانت تتخذ أشكالاً وأحوالاً بحيث لا يعوق حدوثها سير مركب العلم والحضارة، وهذا ما أحاول بحثه حتى أصل بمشيئة الله إلى نتيجة مرضية ومقنعة.

وإذا انتقلنا إلى الرحالة الشهير ابن بطوطة فسنجده قد انبهر أيضًا بما رآه في مصر وتعجب كثيرًا ليزيدنا حيرة إلى حيرتنا، ولكن من هو ابن بطوطة وما هي طبيعة رحلاته؟

ابن بطوطة ورحلاته:

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي الطنجي[١] الشهير بابن بطوطة، وقد ولد في مدينة طنجة في ١٣٠٤/٢/٢٤م وكان ابن بطوطة كثير الرحلات والسفر، وقد مر في رحلاته الكثيرة بالعديد والعديد من البلاد الإسلامية وغير الإسلامية، ثم قام بتدوين كل ما رأى وسمع خلال هذه الرحلات بقدر المستطاع، والطريف في رحلات ابن بطوطة كما يقول د. حسين مؤنس "وقد ذكرنا أن ابن بطوطة خرج لرحلته بمال قليل، فكيف استطاع أن يقوم بهذه الرحلات الطويلة وهو لم يكن بتاجر يبيع ويشتري ويسد نفقات الرحلة على الطريق؟

١ المختار من رحلات ابن بطوطة (د. حسين مؤنس) صفحة ٧

- الجواب على هذا السؤال يكشف عن ناحية من أجمل نواحي الحضارة الإسلامية، وهي ناحية ترابط الأمة وتآخيها وتعاون أفرادها بعضهم مع بعض، واجتهادهم في المحافظة على وحدة أمتهم وسلامة دار الإسلام، ذلك أنه كان هناك دائمًا عالمان إسلاميان: عالم السياسة، وكله خلافات وحروب ومكايد، وعالم الأمة نفسها، وهي وحدة متماسكة مترابطة كما ذكرنا، فهذا الرجل قطع العالم الإسلامي كله من المغرب إلى إندونيسيا دون أن يشعر أنه خرج من بلده أو فارق أهله، ووجد في كل مكان من يستقبله ويؤويه ويقدم إليه الطعام، لا على سبيل التكرم والتفضل بل لأنه كان هناك تنظيم محكم وضعته الأمة وقامت على رعايته وتنفيذه دون تدخل الدولة، وقد فعلت الأمة ذلك تنفيذًا لما نص عليه القرآن الكريم مرة بعد مرة من رعاية ابن السبيل وإكرامه وإطعامه، وابن السبيل هو المسلم الغريب عن وطنه، وقد أحصيت ست آيات على الأقل في القرآن الكريم أوصى الله سبحانه فيها المسلمين بابن السبيل، وجعل له نصيبًا في أموال الناس، لهذا حرصت الأمة وهي القيّمة الحقيقية على الدين على تنفيذ هذا التوجيه القرآني العظيم، فأقامت الزوايا والربط ودور الضيافة في كل مكان، ورحلة ابن بطوطة أكبر دليل على ذلك"[1]، وعندما تقرأ ما كتبه ابن بطوطة خلال رحلاته تشعر بعالم إسلامي آخر بعيد عن كل هذه الصراعات السياسية والمؤامرات.

---

١ المختار من رحلات ابن بطوطة (د. حسين مؤنس) صفحة ١٤، ١٥، ١٦

"تسكنه أمة واحدة يربط بين أفرادها رباط الإسلام والمودة الإنسانية، وهذه فضيلة أكبر من فضائل هذه الرحلة، فهي في الحقيقة رحلة في صميم المجتمع الإسلامي، نراه من خلالها على حقيقته، هي حقيقة تسعد الإنسان وتشعره بأن الدنيا بخير ما دام الإسلام بخير"[1].

زيارة ابن بطوطة لمصر:

زار ابن بطوطة مصر في عصر المماليك البحرية وتحديدًا في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وهذا السلطان بالذات كان عهده عهد استقرار ورخاء غير عادي، فقد جاء بعد رحلة كفاح طويلة ضد التتار والصليبيين وأصبح هناك هدوء نسبي يسود الأمة وراحة من الحروب الكثيرة الناجحة، ويعتبر عهد الملك الناصر محمد من أفضل عصور سلاطين المماليك إن لم يكن أفضلها على الإطلاق والله أعلم، وقد وصف ابن بطوطة الملك الناصر محمد بأن له سيرة كريمة وفضائل عظيمة "وكفاه شرفًا انتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين وما يفعله في كل سنة من أفعال البر التي تعين الحجاج من الجمال التي تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء"[2] ولم يكتف ابن بطوطة بوصف الملك فقط، بل قال:

---

١ المختار من رحلات ابن بطوطة (د. حسين مؤنس) صفحة ١٩

٢ المختار من رحلات ابن بطوطة (د. حسين مؤنس) صفحة ٥٨

"لكن الزاوية التي بناها مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين وكهف الفقراء والمساكين خليفة الله في أرضه القائم من الجهاد بنفله وفرضه أبو عنان أيّد الله أمره وأظهره وسنى له الفتح المبين"[1] وقد انبهر ابن بطوطة بمصر بلا شك، فقد كانت مركزًا للحضارة والعلم ووصفها بقوله "هي أم البلاد وقرارة فرعون ذي الأوتاد، ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة المتناهية في كثرة العمارة المتباهية بالحسن والنضارة، مجمع الوارد والصادر ومحط الضعيف والقادر.. تموج موج البحر بسكانها.. قهرت قاهرتها الأمم وتملكت ملوكها نواصي العرب والعجم... كريمة التربة مؤنسة لذوي الغربة... ويقال إن بمصر من السقّائين على الجمال اثني عشر ألف سقّاء... وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفًا تمر صاعدة إلى الصعيد منحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات.. وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة، وهو مكان النزهة والتفرج وبه البساتين الكثيرة الحسنة.. وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها، وأما المارستان الذي بين القصرين.. فيعجز الواصف عن محاسنه، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر.. والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا، وكل زاوية بمصر معينة للفقراء"[2]،

---

١ المختار من رحلات ابن بطوطة (د. حسين مؤنس) صفحة ٥٨

٢ المختار من رحلات ابن بطوطة (د. حسين مؤنس) صفحة ٥١، ٥٢

وإذا حاولنا أن نستخرج ما نحتاج إليه في بحثنا هذا من كلام ابن بطوطة فسنجد أنه يصف المنافسة بين الأمراء، ولكنه لا يشير إطلاقًا إلى الصراع على السلطة، وهذا قد يعني أنه رأى من الجمال والروعة ما أنساه ذلك الصراع، أو أنه قد حضر في وقت لم تكن فيه فتن وصراعات، وما لفت نظري أيضًا في كلام ابن بطوطة جملة في منتهى الروعة، حيث قال "كريمة التربة مؤنسة لذوي الغربة" فهي جملة لا شك قد شعر بها قبل أن يكتبها، والسؤال هنا: هل يمكن أن تكون مؤنسة له ولذوي الغربة ولا تكون كذلك لأهلها وشعبها؟

ولكن أكثر ما يدهشني في كلام ابن بطوطة هو حديثه عن المدارس، حيث ذكر أنه لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها، رغم أنه استطاع أن يعرف من المصريين عدد السفن والمراكب في النيل، فما هو الشيء الأسهل في الحصر والعد المراكب أم المدارس؟ وقد يكون كلامه له صيغة المبالغة بالطبع من كثرة ما شاهد من المدارس، وعلى كل حال فمن الواضح بل المؤكد أن المماليك في ذلك الوقت كانوا رعاة للعلم والعلماء، وسيكون الفصل القادم عن هذا الموضوع بمشيئة الله.



اهتمام المماليك بالعلوم والفنون

العلم هو سبب الازدهار والحضارة:

العلم يبني الإنسان والإنسان يصنع الحضارة، وهذا باختصار شديد ما حدث في عصر المماليك البحرية، فاهتمامهم بالعلم ورعايتهم للعلماء وكثرة المدارس في عهدهم، كل هذا قد ساهم في بناء الإنسان، وبالتالي ازدهر كل شيء على يد الإنسان في جميع المجالات (صناعة، تجارة، زراعة، بناء)، وأيًا ما كانت أسباب ودوافع المماليك للاهتمام بالعلم والعلماء، فإن هذا ما حدث، بل هو ثابت في العديد من كتب التاريخ التي تتناول ذلك العصر، وفيما كتبه د. محمود الحويري ما قد يفسر كلام ابن بطوطة، حيث كتب في كتابه الممتع (مصر في العصور الوسطي) ما يلي:

"كانت القاهرة في عصر دولة المماليك دون نزاع أكثر العواصم الإسلامية ازدهارًا بالبحث والدرس، وحملت وحدها مشعل الثقافة العربية الإسلامية وحافظت عليها من خطر الضياع بعد أن ذوت مراكز العلم والتنوير في معظم البلاد الإسلامية، خاصة بعد سقوط بغداد في أيدي المغول وتدميرهم لكنوز المخطوطات، وتعرض قرطبة في الأندلس لحركة الاسترداد المسيحية وإلحاق الضرر ببلاد الشام على أيدي الصليبيين والمغول جميعًا،

واستقبلت مصر العلماء والباحثين والطلبة من كل مكان لينهلوا من مراكز العلم بها، وفي العصر المملوكي زاد عدد المدارس زيادة كبيرة"[1]، ويتضح من هذا الكلام أن العلم والعلماء يحتاجون إلى قوة راعية لنشاطهم العلمي ولا يمكن أن تقوم حضارة بدون علم ولا يمكن أن يتحقق العلم إلا في وجود قوة ترعاه وأموال تنفق عليه.

القوة الوحيدة الراعية للعلم:

ومن المؤكد أن المماليك كانوا في فترة من فترات التاريخ هم القوة الوحيدة في العالم الإسلامي، وكانوا يحترمون العلم والعلماء، وبالتالي هرول إليهم أهل العلم بعد ضعف العباسيين في بغداد والأمويين في الأندلس، ولكن كل هذا يزيد من الحيرة والدهشة ويتطلب الإجابة على السؤال الذي يصاحبنا في هذا البحث: كيف يكون هذا حال المماليك مع السمعة السيئة التي التصقت بهم إلى حدٍ ما فيما يختص بالصراعات والفتن؟ وهو السؤال الذي سنحاول الإجابة عليه بمشيئة الله إن استطعنا إلى ذلك سبيلاً، وسنبدأ من بداية حصولهم على السلطة بعد معركة المنصورة الشهيرة، ولكن دعنا أولاً نزيد من حيرتنا ودهشتنا ونجمع وندون بعض ما كتبه المؤرخون عن الحضارة في عصر المماليك، فكلما زادت الحيرة زادت المتعة عند حل اللغز والوصول إلى إجابة شافية.

---

١ مصر في العصور الوسطى (د. محمود الحويري) صفحة ٢٩٢

رعاة الفنون أيضًا:

"على الرغم من أن المماليك كانوا طبقة حاكمة تميل إلى البطش والقسوة والقوة، إلا أنهم كانوا رعاة للفنون التي لم تشهد لها مصر مثيلاً منذ عصر البطالمة، وتمتعوا بذوق راقٍ وحب للفنون فملأوا سماء القاهرة بالتحف الهندسية الرائعة، ولا زالت القاهرة تزخر بالمساجد والمدارس والقباب والخوانق والأضرحة والقصور والأسبلة والحمامات والبيمارستانات وغيرها من التحف المعمارية، وقد عني سلاطين المماليك وأمراؤهم عناية تامة منذ قيام دولتهم بتشييد المنشآت العامة حتى كاد يخطئها العد"[1].

الحياة الفكرية والأدبية:

"بلغت الحياة الفكرية والأدبية في مصر الإسلامية ذروة النضج والازدهار في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، ففي هذين القرنين تحتشد أعظم جمهرة من العلماء والكتاب من كل فن وضرب، وفيها تغص القاهرة بأكابر العلماء الوافدين عليها من المشرق والمغرب، تجتذبهم نهضتها الفكرية، وأزهرها التالد، وبلاطها المستنير[2]، حامي الآداب والعلوم، ويمتاز القرن الثامن في مصر بظاهرة فكرية خاصة،

١ مصر في العصور الوسطى (د. محمود الحويري) صفحة ٢٨٦

٢ ربما يعبر هذا عن معاني كثيرة مما أود توضيحه (بلاطها المستنير، حامي الآداب والعلوم).

وهي أنـه عصر الموسـوعات العلميـة والفنـون المعروفـة يومئـذ، في مؤلفات جامعة لم تعرفها الآداب العربية من قبل، وكتبت في عدة موسـوعات جليلـة، مـا زالـت تتبـوأ مقامهـا الفـذ في تـراث الأدب العربي"[1] ، وأشهر هؤلاء العلماء الموسوعيين أحمد بن عبد الوهاب النـويري المتـوفى سـنة ١٣٣٢ م صـاحب كتـاب "نهاية الأرب في فنـون الأدب" وأحمد بن فضل الله العمري المتوفى سنة ١٣٤٨ م صاحب كتـاب "مسـالك الأبصـار في ممالـك الأمصـار" وأبـو العبـاس القلقشـندي المتـوفى سـنة ١٤١٨ م صـاحب كتـاب "صـبح الأعشى في صناعة الإنشا" وإنه لمن التجاوز والتواضع أن نسمي هذه المؤلفات المدهشـة كتبًا، فهي في الواقـع موسـوعات ضخمة شاسـعة لا تـدل أسماؤها على حقيقة محتوياتها"[2].

رعاية العلم والحاجة إلى اقتصاد قوي:

ومما لا شك فيه أن كل هذا النشاط العلمي كما يحتاج إلى قوة ترعاه، فلابد له من أموال تنفق بسخاء على البحث العلمي وترعاه، ولـذلك اهـتم المماليك بالحيـاة الاقتصـادية، وممـا ذكـره د. محمـود الحـويري في هـذا المعنى مـا يلي: "اهـتم سـلاطين المماليـك بالزراعـة باعتبارهـا مصـدر الثـروة الأول الـذي عـاش عليـه المصـريون في مختلف العصور، ولذلك عني سلاطين المماليك بحفر الترع وإقامة الجسور حرصًا على وصول المياه إلى أراضي لم تصل إليها من قبل،

١ مؤرخو مصر الإسلامية (محمد عبد الله عنان) صفحة ٧٦

٢ مؤرخو مصر الإسلامية (محمد عبد الله عنان) صفحة ٧٦

مما زاد في رقعة الأراضي الصالحة للزراعة وبالتالي كثرة الغلات والخيرات"[1]، ولنا هنا وقفة عند الزراعة لما لها من وضع خاص في تاريخ مصر، ولنخصص الفصل القادم عن اهتمام حكام مصر بالزراعة والري.



١ مصر في العصور الوسطى (د. محمود الحويري) صفحة ٢٨٨

نماذج لاهتمام بعض حكام مصر بالزراعة والري على مر التاريخ

الاهتمام بتنظيم الري منذ العصر الفرعوني:

من المؤكد أن كل من حكم مصر وحقق نجاحات اقتصادية على مر التاريخ كان تنظيم الري من بين اهتماماته إن لم تكن أولى اهتماماته على الإطلاق وذلك منذ عصور الفراعنة، فنجد مثلاً المؤرخ الإغريقي الشهير هيرودوت قد كتب منبهرًا عن مشروعات الملك أمنمحات الثالث في مجال الري وهو أحد ملوك الأسرة ١٢ بالدولة الوسطى الفرعونية، وقد سمي باسم ني ماعت رع، ويعتبره المؤرخون من أعظم من حكموا مصر، ودام حكمه خمسًا وأربعين سنة مرت على مصر في هدوء وسلام وملئت بالمشروعات الكبرى العمرانية، كان أعظمها بطبيعة الحال نظام الري الذي ابتكره للوجه البحري بأن اتخذ من منخفض إقليم الفيوم الذي ينخفض في بعض أجزائه عن البحر بـ ١٢٩ قدمًا خزانًا للماء، حيث لا تزال بحيرة قارون آية على ذلك، فشيدوا على الفتحة في سلسلة الجبال التي تربط وادي النيل بمنخفض الفيوم سدًا عظيمًا – سد اللاهون- فنشأت هذه البحيرة الهائلة في التاريخ التي عرفت باسم بحيرة موريس، والتي كانت تمد النيل بعد ذلك بالماء خلال فترة التحاريق أشبه بخزان أسوان أو السد العالي في عصرنا الحديث، وبهذا ضرب عدة عصافير بحجر واحد،

فهـو أنقـذ الفيـوم مـن الغـرق الـذي كانـت تتعـرض لـه كل عـام، واستصلح أراضٍ زراعيـة قـام باسـتغلالها بالفعـل ومـد النيـل بالماء أيام التحاريق.[1]

اهتمام بطليموس الثاني بالري:

وظـل الاهتمـام بمشـاريع الـري حتى نهايـة العصـر الفرعـوني، بـل واستمر بعـد ذلـك في عصـر البطالمة، وإذا كان بطليمـوس الأول هـو الـذي وضـع أسـاس دولـة البطالمة، فـإن بطليمـوس الثـاني هـو الـذي اسـتكملها وزاد عليهـا ودعـم قـواعـد الحكـم مـن حيـث تنظيم وبنـاء جهـاز الدولـة الإداري والاقتصـادي والمـالي، كمـا اهـتم بالتجـارة والتوسع التجاري بحيث أصبح الأسطول المصري يجـوب بحرّية في ميـاه البحـر المتوسـط، وشـجع التجـارة والأسـواق واهـتم بتطـوير الزراعـة وأكمـل مشـروع تعمير الفيـوم، كمـا قـام بإنشـاء الترع والمصـارف والقنـوات وتطهيرهـا مـن الرواسـب لتوسـيع الرقعـة المزروعة،

كما شجع كبار الزراع على تصدير منتجاتهم.[2]

---

١ ورد بالجزء الأول من موسوعة تاريخ مصر للأستاذ أحمد حسين صفحة ٨٠ وما بعدها وتحت عنوان أمنمحات الثالث حوالي ١٨٤٢ قبل الميلاد "وفترة حكم أمنمحات الثالث حل فيها النعيم والأمن والسكينة على البلاد، حتى ترنم القوم بالفرعون قائلين: إنه يكسو القطرين جنة خضراء أكبر من النيل العظيم، لقد زاد القطرين قوة، كيف لا وهو نفس الحياة المرطب للأنوف، هو الذي يوزع الخيرات على تابعيه، هو المغذي لخلفائه، هو الفداء وفي فمه الخير".

٢ نقلاً باختصار عن كتاب "هؤلاء حكموا مصر من مينا إلى مبارك" إعداد حمدي عثمان – المراجعة العلمية د. ناصر الأنصاري – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية - صفحة ١١٤-١١٥

الإمبراطور أغسطس ومشروعات الري:

وعندما قام الإمبراطور الروماني أوكتافيوس أغسطس بضم مصر للإمبراطورية الرومانية سنة ٣٠ قبل الميلاد وأنهى حكم البطالمة في مصر، اتخذ بها عدة إجراءات، ومن أهم هذه الإجراءات أنه قام بتوزيع عدد ضخم جدًا من القوات الرومانية في مواقع حساسة ومهمة في أنحاء مصر، وبلغت هذه القوة ثلاثة فرق رومانية كاملة وعددًا من الكتائب المساعدة وهذا يعادل حوالي ٢٢٨٠٠ مقاتل، وهو عدد يفوق بكثير متطلبات الموقف،[١] وذلك يعكس حقيقة قلق أغسطس البالغ، كما قسم مصر إلى ثلاثة مناطق إدارية وأصدر قرارًا يمنع بمقتضاه أي شخص من عظماء روما أن يزور مصر إلا بإذنه شخصيًا سواء كان من مجلس السناتو أو من كبار القادة الطموحين، وهذا يدل على حكمته البالغة وخبرته الواسعة في أمور القتال والسياسة أيضًا، كما قام بإجراء العديد من الإصلاحات الزراعية ومشروعات الري وتطهير القنوات وشق الترع وإصلاح المرافق، وأعطى تعليماته للوالي أن يستكمل كل هذه الأعمال بعد مغادرته إلى روما، وكان اهتمام أغسطس بالزراعة وخاصةً زراعة القمح في مصر لأنها ستصبح المصدر الرئيس للقمح في الإمبراطورية، حيث أصبحت مصر تطعم روما بعد ذلك، كما جعل لمصر عملة خاصة بها وأطلق على هذه الإجراءات (سر الإمبراطورية).

---

١ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني (د. سيد الناصري) صـ ١٢٣

عصر الولاة والاهتمام بالزراعة:

"تولى حكم مصر في أعقاب الفتح العربي لها ولاة كانوا يُعيّنون من قِبَل الخلافة الإسلامية في المدينة المنورة أو دمشق أو بغداد، وقد اعتاد المؤرخون أن يسموا العصر الذي يبدأ بفاتح مصر عمرو بن العاص حتى قيام الدولة الطولونية سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) بعصر الولاة، وقد روعي في اختيار هؤلاء الولاة أن يكونوا من أصحاب السمعة الطيبة والنزاهة والعدالة، فإذا أهمل أحدهم شئون مصر أو استبد بأهلها عزله الخليفة وأتى بغيره طبقًا لتعاليم الإسلام التي تقرر أن الحكم ينبغي أن يكون في أصلح الناس له، ولهذا كان الولاة – أو على وجه الدقة معظمهم – يحرصون على استثمار ثروات مصر ومواردها فيما يعود بالنفع على الشعب المصري الذي ارتضى الإسلام دينًا وبدأ يتعرب من الجيل الأول بعد الفتح"[1]، "وفي عصر الولاة اهتم حكام مصر بشئونها الاقتصادية، فأولوا عنايتهم بالزراعة عقب الفتح مباشرة وعملوا على زيادة الغلات والمحاصيل واهتموا بشئون الري".[2]

١ مصر في العصور الوسطى (د. محمود الحويري) صفحة ٦٨

٢ مصر في العصور الوسطى (د. محمود الحويري) صفحة ٩٠

الرخاء يعم الجميع في عصر الولاة:

يقول الدكتور شوقي ضيف: "ومما يدل بوضوح على رخاء مصر في عصر الولاة ومدى ما كان يتمتع به القبط من حسن المعاملة خبر رواه المقريزي وقع في أثناء زيارة – الخليفة – المأمون لمصر سنة ٢١٧ هـ، إذ مر بقرية يقال لها وطاء النمل، وكانت إقطاعية لقبطية عجوز تسمى مارية، فتعرضت له تسأله أن ينزل في ضيافتها مع حاشيته ومن يرافقه من جنده، وعجب لكثرة ما قدمت من أطعمة، فلما أصبح جاءته ومعها عشر وصائف، مع كل وصيفة طبق، فظن أنها ستقدم له بعض هدايا الريف المصري، فلما وضعت الوصائف الأطباق بين يديه إذا في كل طبق كيس من ذهب، فشكرها وأمرها برده، فأبت إباء شديدًا، وتأمل الذهب أو الدنانير فإذا بها من ضرب عام واحد، مما يدل على ربحها من عام، فقال: هذا والله أعجب، وقال لها: ردي مالك بارك الله لك فيه، فأخذت قطعة من الأرض وقالت: يا أمير المؤمنين هذا الذهب من هذه الطينة التي تناولتها من الأرض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين، وعندي من هذا الذهب شيء كثير، فأخذه المأمون لبيت المال".[1]

١ نقلاً عن كتاب (تاريخ الأدب العربي) عصر الدول والإمارات – مصر – تأليف د. شوقي ضيف – دار المعارف صفحة ٤٥

استمرار الاهتمام بالري حتى العصر الحديث:

واستمر الاهتمام بتنظيم الري حتى عصر محمد علي باشا ومن بعده، فمن أعماله فتح ترعة المحمودية "نسبة للسلطان محمود" وغيرها من الترع في شمال وجنوب مصر، كما أنشأ الجسور العديدة والقناطر، كما أنه قام بتحويل نظام الري من ري بالأحواض إلى ري دائم بعد أن أنشأ القناطر الخيرية،

"كانت أراضي الوجه البحري.. تروى بطريق الحياض كري الوجه القبلي فلا يزرع فيها إلا الشتوي ولا يزرع الصيفي إلا على شواطئ النيل أو الترع القليلة المشتقة منه، وقد أخذ محمد علي في تغيير هذا النظام تدريجيًا، إذ أخذ في شق الترع وتطهيرها وإقامة الجسور على شاطئ النيل ليضمن توفير مياه الري في معظم السنة، وصارت الترع تروي الأراضي في غير أوقات الفيضان جهد المستطاع ولاسيما بعد إقامة القناطر عليها، وقد توّج محمد علي أعمال الري التي أقامها بإنشاء القناطر الخيرية واسمها يغني عن التعريف، فإنها قوام الري الصيفي في الوجه البحري، وهي وإن كانت آخر أعماله في الري إلا أنها أعظمها نفعًا وأجلّها شأنًا وأبقاها على الدهر أثرًا"[1]، كما قام محمد علي بتوسيع نطاق الزراعة وغرس الأشجار واهتم بتحسين زراعة القطن وأدخل أنواعًا جديدة تصلح للنسيج، واستقدم خبيرًا فرنسيًا لتنظيم مصانع النسيج،

---

١ عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ٣٩٤

وبعد انتهاء عصر أسرة محمد علي وقيام العصر الجمهوري في مصر تم إنشاء السد العالي في عهد الرئيس جمال عبد الناصر، وهو مشروع ضخم يحقق الاستقرار المائي لمصر، كما تم استغلاله أيضًا في توليد الكهرباء.

وعلى كل حال هذه مجرد نماذج على مر التاريخ في مصر لاهتمام حكامها بالري والزراعة منذ عهد الفراعنة، ويمكن تخصيص الفصل القادم عن علاقة تنظيم الري بنظام الحكم في مصر منذ أقدم العصور.



علاقة الري بنظام الحكم في مصر

كلمة السر هي تنظيم الري:

إن تنظيم الري في مصر ليس مجرد أحد الإنجازات التي قام بها حكام مصر ومن بينهم سلاطين المماليك الذين اهتموا بالزراعة وتنظيم الري، مما يعكس مدى وعيهم الكامل بطبيعة الدولة التي يحكمونها أو على الأقل استماعهم لأهل الخبرة والعلم في كل مجال من المجالات ومن بينها الري والزراعة، فتنظيم الري في مصر له أصول تتعلق بنظام الحياة بالكامل وأسلوب الحكم.

عن مصر القديمة والبيئة الفيضية

في كتابه الممتع (شخصية مصر) كتب د. جمال حمدان ما ملخصه:

الحقيقة الكبرى في كيان مصر هي أنها بيئة فيضية، لا تعتمد على المطر في حياتها، وإنما على ماء النهر، وقوامها هو زراعة الري.. ومن هنا بالدقة يبدأ كل الفرق في حياة المجتمع النهري وطبيعته، ففي البلاد التي تعيش على الأمطار مباشرةً يختزل المجهود البشري إلى حده الأدنى، فبعد قليل من إعداد الأرض والبذر، يتوقف العمل أو يكاد حتى الحصاد، وبين هذا وذاك فليس هناك من يحفر الترع والمصارف أو يقيم الجسور والسدود،

وأهم من هذا كله أن ليس هناك من يمكنه أن يحبس عنك المطر أو أن يتحكم في توزيعه، من هنا فقد تكون الطبيعة سيدة الفلاح، ولكن الفلاح بعد ذلك سيد نفسه، أما في بيئة الري فالأمر مختلف كل الاختلاف.. لا بد من مجهود بشري ضخم أي لا بد من شبكة غطائية كثيفة من الترع من كل مقياس ابتداء من قنوات الحمل وقنوات التغذية إلى مساقي الحقول حتى تزرع، ثم ما جدوى تلك الشبكة إذا لم تسيطر على أعناقها ورءوسها بالنواظم والقناطر والسدود؟ أعني أي جدوى فيها بغير ضبط النهر؟

وأكثر من هذا ما جدوى الجميع بغير ضبط الناس؟ إن زراعة الري إذا تركت بلا ضابط يمكن أن تضيع مصالح الناس المائية في مواجهة بعضها البعض مواجهة متعارضة دموية، ذلك أن كل من يقيم على أعلى الماء يستطيع أن يسيء استعماله إما بالإسراف أو بحبسه تمامًا عمن يقع أسفله أي أن كل حوض علوي يستطيع أن يتحكم في حياة أو موت كل حوض سفلي، وكل من يقع على أفواه الترع يستطيع أن يهدد حقوق المياه لمن يقع على نهايات الترع، كذلك يمكن للمحاباة والتحيز أن تسخو بالماء لمن تريد وتقبضه عمن تريد.

المحصلة إذن واضحة: بغير ضبط النهر يتحول النيل النبيل إلى شلال حطم جارف، وبغير ضبط الناس يتحول توزيع الماء إلى عملية دموية ويسيطر على الحقول قانون الغاب والأدغال.

في ظل هذا الإطار الطبيعي يصبح التنظيم الاجتماعي شرطًا أساسيًا للحياة، ويتحتم على الجميع أن يتنازل طواعية عن كثير من حريته ليخضع لسلطة عامة أعلى توزع العدل والماء بين الجميع، سلطة عامة أقوى بكثير مما يمكن أن تتطلبه بيئة لا تعتمد على نهر فيضي في حياتها وبذلك لا تكون الطبيعة وحدها سيدة الفلاح، وإنما بين الاثنين يضيف الري سيدًا آخر هو الحاكم.

فإذا ما التفتنا إلى مصر القديمة بصورتها الفرعونية فستجابهنا هذه الملامح، ملامح المجتمع الهيدرولوجي إلى حد نادر المثال، فقد عد فرعون ضلعًا أساسيًا في مثلث الإنتاج إلى جانب الضلعين الطبيعيين الماء والشمس هذا عن الحكومة، أما عن المجتمع فهو أساسًا مجتمع تعاوني منظم، وهنا نجد في القرية المصرية في صميم تركيبها وسيكولوجيتها وزراعتها قدرًا كبيرًا متوطنًا ومتأصلاً من التعاونية والمشاركة التلقائية، فهي خلية بشرية متلاصقة متلاحمة.[1]

وهكذا أكد الدكتور جمال حمدان بوضوح شديد أهمية الحاكم في مصر القديمة بحيث تستحيل الحياة بدونه، وقد يكون هذا هو السبب في أن تصبح مصر من أوائل الدول في العالم التي عرفت الحكومة، بل قد تكون أول حكومة في التاريخ هي الحكومة المصرية.

---

١ نقلاً باختصار عن كتاب مختارات من شخصية مصر ٣ للدكتور جمال حمدان – مكتبة مدبولي - مقتطفات مختصرة من صفحة ٢٠ وما بعدها.

أول حكومة في التاريخ كانت في مصر

فعن هذا الموضوع كتب د. جمال حمدان:

فالبيئة كما رأينا فيضية، والمجتمع مجتمع هيدرولوجي، ولهذا أصبح الري مرادفًا للتنظيم، والتنظيم المركزي، الذي يخضع فيه الجميع طواعية لسلطة عامة مطلقة، وإن كان هذا من أقوى عوامل ظهور الوحدة السياسية المبكرة في مصر، كما أنه علم الشعب أن النظام أساس الحضارة، إلا أن هذا أيضًا بدأ دور الحكومة الطاغي وأرسى نواة الموظفين الثقيلة، وأصبحت البيروقراطية المركزية عنصرًا أصيلاً في مركب الحضارة المصرية، بل ثقلا عنيدًا في موكبها، أصبحت مصر مجتمعًا حكوميًا كما نقول، فالحكومة وحدها هي التي تملك زمام المبادرة وإمكانيات العمل، العمل الكبير على أية حال، وقد كان لهذا قيمته في بعض المراحل، ولو أنه ربما خلق في جميعها شيئًا من روح التواكل والتكاسل والسلبية وخنق ملكات المبادأة وحوافز التلقائية في السكان، وهنا مرة أخرى نجد أن الحكومة المركزية الأولى في التاريخ ليست ميزة صافية بلا شوائب ولا كانت مكسبًا بلا ثمن، والذي يتعمق تاريخ مصر الاجتماعي ستروعه ولا شك تلك البيروقراطية العاتية التي تمتد على طوله بغير انقطاع، حتى لتشكل نغمة دالة عليه وملمحًا أساسيًا آخر من ملامحه، فالبيروقراطية في مصر قديمة قدم الحضارة الفرعونية، مع الأهرام تبدأ، وفيها تتلخص،

ويكفي بعدها أن نرى صور كبار الموظفين على النقوش والآثار القديمة وأن نعرف أخبارهم المتواترة في البرديات والسجلات العديدة حتى ندرك خطورة الدور الذي لعبته الهيئة البيروقراطية قديمًا، بل إن شئت رمزًا بليغًا، ففي النحت تجده ابتداء من تمثال الكاتب حتى تمثال شيخ البلد، فهذه جميعًا نصب تذكارية وتاريخ محفوظ أو محفور للبيروقراطية الفرعونية الثقيلة".[١]

وهكذا أخذنا كلام د. جمال حمدان من الزراعة إلى الري إلى المركزية في مصر، ولكن هل هذا الشعب قد خضع لهذه المركزية في مصر القديمة فقط أم استمرت هذه الحالة حتى بعد انتهاء العصر الفرعوني ولازمته طول تاريخه؟ وإذا أعدنا قراءة كلام د. جمال حمدان وتأملناه جيدًا سنجده قد قال: "والذي يتعمق تاريخ مصر الإجتماعي ستروعه ولا شك تلك البيروقراطية العاتية التي تمتد على طوله بغير انقطاع". فتأمل معي كلمة تمتد على طول التاريخ وبغير انقطاع بل تشكل نغمة دالة عليه وملمحًا أساسيًا آخر من ملامحه.

---

١ القاهرة – د. جمال حمدان – صفحة ٨٥

هل المصريون يحتاجون الحاكم أكثر من احتياجه لهم؟

ومن هنا يمكن القول إن الشعب المصري يحتاج أو احتاج حاكمًا قويًا على طول تاريخه، وحاجة الشعب إلى هذا الحاكم القوي تفوق كثيرًا حاجة هذا الحاكم للشعب، وهناك تناسب طردي بين قوة الحاكم وإحساس الشعب بالأمن، فكلما كان الحاكم قويًا كلما شعر الشعب بالأمن، فهو دائمًا يحتاج إلى المبادرة من أعلى، ودائمًا ينتظر ما سيحدث لا ما سيصنعه هو، فهو لا يصنع شيئًا من تلقاء نفسه بل عليه أن يتلقى التوجيهات من أعلى، من حاكم ترنو إليه الأبصار وتتعلق به الآمال، وإذا تأملنا الآثار الفرعونية في طول البلاد وعرضها فسنجد أن أروعها وأكثرها تم بناؤها في فترات السيطرة الكاملة للحكومة المركزية في ثلاث دول (القديمة والوسطى والحديثة)، ولن نجد آثارًا بهذه الروعة في فترات الاضمحلال خلال العصر الفرعوني، فلم تحدث إنجازات معمارية يمكن مقارنتها بما حدث في هذه الدول الثلاث، وقد تكون هذه فرصة مناسبة لكتابة ملخص بسيط وسريع عن العصر الفرعوني، وقد نحتاج إلى الإشارة إليه أثناء الحديث عن سلاطين المماليك.

معلومات مختصرة عن ملخص العصر الفرعوني

ينقسم العصر الفرعوني إلى ثلاثة عصور رئيسية: عصر الدولة القديمة - عصر الدولة الوسطى - عصر الدولة الحديثة، وسبق هذه العصور الثلاثة عصر يسمى بالعصر العتيق، ويلي كل عصر من هذه العصور فترة اضمحلال: الاضمحلال الأول بين الدولة القديمة والدولة الوسطى - الاضمحلال الثاني بين الدولة الوسطى والدولة الحديثة - الاضمحلال الأخير في نهاية الدولة الحديثة ونهاية العصر الفرعوني بالكامل، وقد قام المؤرخ المصري القديم (مانيتون) بحصر عدد الأسر في العصر الفرعوني فذكر أنها ثلاثين أسرة فرعونية، موزعة على العصور الفرعونية المختلفة.

والأسرة الفرعونية تعني عائلة حكمت مصر فترة معينة، وتبدأ بمؤسس لهذه الأسرة ثم يتبعه ويليه أبناؤه ثم أحفاده حتى يظهر مؤسس آخر لأسرة جديدة وهكذا، ويختلف عدد ملوك كل أسرة عن الأخرى في أغلب الأحيان، فمثلاً عدد ملوك الأسرة الثامنة عشرة عبارة عن ١٤ ملكًا، وعدد ملوك الأسرة الرابعة عبارة عن سبعة ملوك، بينما تكونت الأسرة الثامنة والعشرون من ملك واحد فقط، وعادةً ما ينتهي حكم أي أسرة لعدة أسباب؛ أهمها هو انتهاء نسل الذكور في هذه الأسرة، فيأتي مؤسس جديد لأسرة جديدة، ويشترط أن يتزوج إحدى أميرات الأسرة الملكية السابقة

حتى تجري الدماء الملكية في عروق أبنائه فيكتسب شرعية الحكم لأسرته، وفيما يلي توزيع عدد الأسرات على العصور المختلفة:

١ - العصر العتيق (عصر تأسيس الدولة) يتكون من أسرتين فقط (الأولى والثانية) من حوالي سنة ٣١٠٠ قبل الميلاد إلى حوالي سنة ٢٦٩٠ ق م، وأشهر ملوك هذا العصر هو الملك مينا موحد القطرين والفرعون الأول في الأسرة الأولى.

٢ - الدولة القديمة (عصر بناة الأهرام) من الأسرة الثالثة إلى الأسرة السادسة من حوالي سنة ٢٦٩٠ ق م إلى حوالي سنة ٢١٨٠ ق م، وأشهر ملوك[1] هذا العصر الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة وصاحب الهرم المدرج بسقارة، والملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة، وكذلك خوفو وخفرع ومنقرع أشهر ملوك الأسرة الرابعة وأصحاب الأهرامات الثلاثة بالجيزة.

٣ - الاضمحلال الأول (عمت الفوضى البلاد) من الأسرة السابعة إلى الأسرة العاشرة من حوالي سنة ٢١٨٠ ق م إلى حوالي سنة ٢٠٦٠ ق م.

١ الإشارة إلى أسماء الملوك في كل فترة من فترات العصر الفرعوني مهم جدًا حتى نلاحظ أن معظم الآثار الرائعة والمشهورة مرتبطة بملوك الدول الثلاثة القوية والرئيسية في العصر الفرعوني، فاسم الملك يغني عن شرح تفاصيل ما تركه من الآثار للمهتمين بدراسة العصر الفرعوني وربما للكثير من المصريين غير المتخصصين.

٤ - الدولة الوسطى (عصر الاهتمام بالسياسة الخارجية) يتكون من الأسرة الحادية عشرة والأسرة الثانية عشرة فقط من سنة ٢٠٦٠ ق م إلى سنة ١٧١٠ ق م، وأشهر ملوك هذا العصر ملوك الأسرة ١١ (منتوحتب) الأول والثاني وهكذا، وملوك الأسرة ١٢ (أمنمحات وسنوسرت) الأول والثاني وهكذا.

٥ - الاضمحلال الثاني (تخلله احتلال الهكسوس لمصر) من الأسرة ١٥ إلى الأسرة ١٧ من سنة ١٧١٠ ق م إلى سنة ١٥٦٠ ق م، وأشهر ملوك هذا العصر الملك سقنن رع والملك كامس الذين كافحا الهكسوس ولم يتمكنا من طردهم.

٦ - الدولة الحديثة (عصر الإمبراطورية المصرية) من الأسرة ١٨ إلى الأسرة ٢٠ من سنة ١٥٨٠ ق م إلى سنة ١٠٨٥ ق م، وأشهر ملوك هذا العصر الملك أحمس الأول، وهو أول ملوك الأسرة ١٨ وطارد الهكسوس، ومن أشهر ملوك هذا العصر ملوك الأسرة ١٨ بشكل عام مثل الملكة حتشبسوت والملك تحتمس الثالث مؤسس الإمبراطورية المصرية والملك أمنحوتب الرابع (إخناتون) والملك توت عنخ آمون والملك حور محب، وأشهر ملوك الأسرة ١٩ الملك سيتي الأول والملك رمسيس الثاني والملك مرنبتاح، وأشهر ملوك الأسرة ٢٠ الملك رمسيس الثالث.

٧ - الاضمحلال الأخير (نهاية الفراعنة وتخلله حكم مصر ملوك ليبيين ونوبيين وآشوريين وفرس على فترات مختلفة) من الأسرة

٢١ إلى الأسرة ٣٠ من سنة ١٠٨٥ ق م إلى سنة ٣٤١ ق م، وأشهر ملوك هذا العصر الملك شاشنق الأول، وهو مصري من أصل ليبي، وهو مؤسس الأسرة ٢٢ ومن أشهر ملوك هذا العصر أيضًا الملك بعنخي، وهو مصري نوبي مؤسس الأسرة ٢٥، والملك بسماتيك الأول مؤسس الأسرة ٢٦، أما الملك (نقطانب الثاني) ويطلق عليه أيضًا اسم (نخت نبف) الثاني أو (نختنبو) الثاني، فهو آخر ملك في الأسرة الثلاثين الفرعونية، أي أنه آخر فرعون مصري تقريبًا.[١]

الإنجازات الكبيرة مرتبطة بالحكام وكذلك الإخفاقات أيضًا:

بل إذا تركنا العصر الفرعوني واستعرضنا عصر البطالمة ثم العصر الروماني في مصر فسنجد الإنجازات تتحقق في فترات حكم الأقوياء فقط، وحتى بعد فتح مصر وانضمامها إلى العالم الإسلامي سنجد أن رغبة الحاكم في حدوث أية أعمال ضخمة تكون هي المحركة للأحداث؛ لأن المبادرة تأتي من أعلى غالبًا، فتأمل وراجع معظم الإنشاءات والمشروعات الكبرى في تاريخ مصر منذ عصر الفراعنة كالأهرامات والمعابد قديمًا والأعمال المعمارية الضخمة في العصر المملوكي وعصر أسرة محمد علي وحفر قناة السويس وبناء السد العالي وكذلك الانتصارات الكبرى في تاريخ مصر،

---

١ نقلا عن (موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلى اليوم مع صورهم وأعلامهم ورموزهم) تأليف د. ناصر الأنصاري – الطبعة الخامسة – ١٩٩٤- دار الشروق – باختصار.

وحتى الهزائم والانكسارات والإخفاقات ستجد أن المحرك للأحداث غالبًا لا يكون الشعب، بالرغم من أن الشعب هو الذي يصنع كل هذا ولكن ليس من تلقاء نفسه في معظم الأحوال.

وعن انعدام دور الشعب في اتخاذ القرار في مصر قديمًا واستمراره أيضًا على طول التاريخ كتب الدكتور جمال حمدان في إطار حديثه عن الاستمرارية والانقطاع في مصر.

بعض ما كتبه د. جمال حمدان عن الاستمرارية والانقطاع في مصر:

حيث كتب في الجزء الرابع من كتابه شخصية مصر – دراسة في عبقرية المكان - الصادر عن دار الهلال في الباب العاشر تحت عنوان (آفاق الزمان وأبعاد المكان) وبالفصل الثاني والأربعين، تحت عنوان الاستمرارية والانقطاع، من صفحة ٦٠٤ وما بعدها: "فعلى طرفي النقيض الأقصى والمطلق من مصر الاقتصادية، وعلى خلاف مصر الاجتماعية، إلى حد بعيد، لم تكد مصر السياسية تتغير أو تعرف التغير، فهي إن لم تكن بعيدة تمامًا عن التغير فإنها بلا نزاع آخر وأقل ما يتغير في مصر، إنها قمة الاستمرارية والثوابت وقاع الانقطاع والمتغيرات في مصر، لكنها للأسف والأسى بالطبع أسوأ استمرارية وشر الثوابت على وجه اليقين والإطلاق، ذلك أنها النقطة السوداء والشوهاء في الاستمرارية المصرية جميعًا، مثلما هي الوحيدة التي لم تعرف الانقطاع أو التغير قبل العصر الحديث وبعده،

إنها الاستمرارية السلبية بامتياز، مثلما هي قمة سلبيات الاستمرارية بيقين، والسؤال ببساطة هل تغيرت مصر المعاصرة عن مصر الحديثة، والحديثة عن القديمة، في قضية التركيب الاجتماعي – السياسي ونظام الحكم والسلطة؟ وإلى أي حد؟ التغير الجوهري في الشكل، أما الجوهر فلم يكد يتغير، وهذا الجوهر هو الطغيان الشرقي، الطغيان الفرعوني، بكل أعمدته التقليدية، فهو الخط المستمر والقاسم المشترك الأعظم، الذي يجري خلال تاريخ مصر كله منذ مينا، المتغير الوحيد هو الشكل، فقديمًا كان الفلاحون عبيد فرعون ثم عبيد السلطان، وحديثًا فإذا لم نكن قد صرنا حقًا أو نوعًا ما عبيدًا – فنحن يقينًا ما زلنا بين فراعنة وفلاحين، ورعايا لا مواطنين، وبمزيد من التوضيح، فنحن في مصر الحديثة قد بدأنا حياتنا النيابية العصرية بالأخذ بالنموذج الغربي الديموقراطي البورجوازي الليبرالي المتعدد الأحزاب، بل وذلك منذ وقت مبكر نسبيًا تحت – الخديو إسماعيل – وقبل كثير من الدول الأخرى، غير أن ذلك لم يكن للأسف إلا كقشرة وطلاء وواجهة ديموقراطية شكلية بحتة لخلفية اجتماعية محض إقطاعية طبقية رجعية، ولأرضية استبدادية غاشمة من الحكم المطلق والطغيان المعهود، فالحرية كلمة مستوردة لم تدخل قاموس السياسة المصرية إلا منذ الطهطاوي والمثل الفرنسي، ولكن كاسم لا كفعل، فالقاعدة الأصولية في مصر، والتي لا تزال مرعية بأمانة، هي أن كل من يختلف مع الحاكم فهو خائن بطريقة أو بأخرى،

أو على الأقل فإنه هو الحقد الذي لم يجد له قط علاجًا، ذلك أن الرأي – كالقوة وكالفعل – ملك للحاكم فقط وحكر عليه وحده، أما المعارضة فلم تعرفها مصر منذ الفرعونية إلا رمزاً وإلا شكلاً، والرأي الآخر لم يوجد إلا في نفس صاحبه فقط، من هنا جميعًا فإن هذه الديموقراطية البرلمانية المستوردة ليست إلا غلافًا جذابًا وقناعًا براقًا للديكتاتورية الأصيلة والأصلية، لذا يمكننا – والديموقراطية أكثر شيء نسبية إن لم تكن أكثر شيء مطاط – أن نسميها بحق الديموقراطية الشرقية كمرادف محلي أو عصري للطغيان الشرقي، ويمكنك أيضًا أن تسميها ديموقراطية العالم الثالث، وما هي إلا الغراب يقلد مشية الطاووس.

وكما في دول الشرق الأوسط والعالم المتخلف ليس ثمة شيء في سياسة مصر الخارجية اسمه الشعب من الوجهة العملية، ولا أوهام في هذا أو انفعال، فصناعة السياسة الخارجية وتشكيلها وتوجيهها هي عمليًا وواقعيًا بغض النظر عن الشكليات السطحية المموهة حكر لرجل واحد هو الحاكم، وأنه حاكم مطلق خارجيًا كما هو داخليًا، ولا يكاد يوجد حاكم في العالم القديم أو الحديث ينفرد بوضع سياسة بلده الخارجية كحاكم مصر، وقد عبّر بعض المعلقين الأمريكيين مؤخرًا على هذه الظاهرة بقولهم إن السياسة الخارجية في هذا الجزء من العالم سياسة شخصية أساسًا، الدور الشخصي للحاكم هو الدور المحوري إن لم يكن الأوحد فيها، وفي هذا بالدقة تكمن جذور المأساة العظمى،

فمكان مصر ومكانتها الدولية كقوة سياسية، انتصارها وهزيمتها، مصيرها وبقاؤها... إلخ، كل أولئك بين يدي شخص واحد، لقد تغيرت مصر الحديثة والمعاصرة في جميع نواحي الحضارة المادية واللامادية والحياة الاقتصادية والاجتماعية بدرجات متفاوة، وذلك على الأقل بحكم العصر والحضارة الحديثة المعدية، تمامًا مثلما تغير كل العالم الثالث ولربما تفوقت مصر في مدى هذا التغيير، غير أنها من أسف لم تكد تتغير من ناحية نظام الحكم، ففي هذا لا جديد تحت الشمس".

فإذا كان هذا ما استمر في مصر على مر التاريخ وكان موجودًا عندما اعتلى المماليك عرش مصر، وإذا كان المماليك في تلك الفترة من تاريخ مصر هم القوة الوحيدة الموجودة على الساحة، فلا غرابة إذن في اطمئنان الشعب لهم وتمسكه بهم بل واحتياجه لهم إذا جاز التعبير.

وإذا تركنا الحديث عن الزراعة والري والمركزية وأهمية الحكومة والحاكم في مصر وعدنا لنستكمل الكلام عن الأحوال الاقتصادية في عصر المماليك، فبعد الكلام عن الزراعة واهتمام المماليك بها يأتي الكلام عن التجارة والصناعة في العصر المملوكي، وليكن ذلك في الفصل القادم إن شاء الله.

❊ ❊ ❊

فكرة عامة عن التجارة والصناعة والبناء في العصر المملوكي

أهم الصناعات في مصر في عصر المماليك:

ونعود مرة أخرى للدكتور محمود الحويري وكتابه الممتع (مصر في العصور الوسطى) حيث كتب ما يلي: "وإلى جانب الزراعة اهتم سلاطين المماليك بالثروة الحيوانية فعملوا على تحسين سلالتها وجلب الأنواع الممتازة لتربيتها والإكثار منها، وفي عصر المماليك ارتقت الصناعة وأصبحت على درجة كبيرة من الجودة والإتقان، ومن أهم الصناعات في العصر المملوكي صناعة المنسوجات، وبرع المصريون في الصناعات الجلدية والمصنوعات المعدنية، وازدهرت صناعة الزجاج، وكذلك صناعة الخزف، وخضع الصناع وأصحاب الحرف في العصر المملوكي لنظام النقابات، فكان أفراد كل حرفة يكونون نقابة خاصة بهم لها نظام ثابت يحدد عددهم ومعاملاتهم، كما يكون لهم رئيس أو شيخ يرأسهم ويفض مشاكلهم ويرجعون إليه في كل ما يهمهم"[1].

---

١ مصر في العصور الوسطى (د. محمود الحويري) صفحة ٢٩٠

الاهتمام بالتجارة:

"أما التجارة في عصر المماليك فقد لعبت الدور البارز كمصدر للثروة سواء كانت تجارة داخلية أو خارجية، ولكن التجارة الخارجية ساهمت بالنصيب الأكبر في دخل دولة المماليك وثرائها"،[1] وكان سلاطين المماليك يهتمون بالتعامل معاملة حسنة مع التجار الأجانب، ومن أظرف الأمثلة على ذلك أن السلطان المنصور قلاوون بعث إلى المسئول عن ميناء الإسكندرية رسالة يأمره فيها بتنمية تجارة الميناء (ومعاملة التجار الواردين إليه بالعدل الذي كانوا ألفوه منه، فإنهم هدايا البحور، ودوالبة الثغور، ومن ألسنتهم يُطلع على ما تجنه الصدور، وإذا بذر لهم حب الإحسان نشروا له أجنحة مراكبهم كالطيور)، وهيأت دولة المماليك وسائل الراحة لإقامة التجار الأوروبيين في مينائي الإسكندرية ودمياط، فبنت الفنادق ووضعتها تحت تصرف هؤلاء التجار حتى يعيشوا وفق النمط الذي اعتادوه في بلادهم".[2]

١ مصر في العصور الوسطى (د. محمود الحويري) صفحة ٢٩٠

٢ مصر في العصور الوسطى (د. محمود الحويري) صفحة ٢٩١، ٢٩٢

مكونات المنازل ومحتوياتها مؤشر للصناعة والتجارة في ذلك الوقت

ولنوضح روعة المنتجات التي كان يتم تصنيعها ومدى التقدم في هذا المجال سنورد هنا وصف مؤرخ بريطاني لأحد المنازل كنموذج للمنازل التي كانت تدل على فكر عالٍ وهندسة معمارية راقية، فيقول ستانلي لين بول[١] واصفًا تلك المنازل التي صممها المهندسون المصريون لتوفر الراحة والهدوء والخصوصية: "وفي داخل الدار ممر ينعطف فجأة بعد خطوة أو خطوتين، ويحول دون مشاهدة أي شيء في الداخل وأنت بالباب الخارجي، وفي نهاية هذا الممر نجد أنفسنا أمام فناء متسع به بئر المياه في أحد الأركان الظليلة، وفي أغلب الأحيان نجد شجرة عتيقة للجميز، وفي هذا المكان لا تتلمس دليلاً على أن ثمة حياة، فالأبواب مغلقة في إحكام إمعانًا في الغيرة والحذر، والنوافذ تحجبها تلك الستائر الخشبية البديعة التي تروق عين الفنان، وتغري الكثير من الغواة باقتنائها، والفناء الداخلي لا يقل في هدوئه وسكونه عن تلك الأجزاء التي تطل على الشارع نفسه،

١ ولد المؤرخ والرحالة البريطاني ستانلي لينبول في مدينة لندن في الثامن عشر من شهر ديسمبر سنة ١٨٥٤ ودرس في جامعة أكسفورد وجامعة دبلن، وبدأ حياته العملية كمؤرخ وباحث في الآثار، وقد زار مصر أكثر من مرة وعمل بها وله مؤلفات عديدة تتناول تاريخها، وتوج في سنة ١٩٠٢ سلسلة مؤلفاته في تاريخ مصر بكتاب (سيرة القاهرة) أو تاريخ القاهرة The Story of Cairo والذي قام بترجمته كل من د. حسن إبراهيم حسن ود. علي إبراهيم حسن ود. إدوار حليم، وفي هذا الكتاب وصف رائع للعاصمة المصرية.

وهنـا لا نـرى أيـة علامـة لحيـاة هـؤلاء السـكان المنزليـة؛ لأن غـرف النساء منعزلة تمامًا عن هذا الفناء ولا تطل عليه، إنما تطل عليه غـرف الرجـال وحجـرات الاسـتقبال ومـا إلى ذلـك، والواقـع أن هـذا المكان الهـادئ مـنعش جـدًا حينمـا يـأوي إليـه المـرء بعـد أن قاسـى الكثير من الجلبة والصخب في الشارع.

حينئذ يشعر المرء أن المهندسين المصريين قد أدركوا لحسـن الحـظ مـا تقتضـيه الحيـاة في الشـرق، فهـم يجعلـون الشـوارع ضـيقة، ويظللونها بالمشربيات البـارزة حتى لا تصل أشـعة الشـمس المحرقة إليهـا، كمـا هـو الحـال في شـوارع المـدن الأوروبيـة الواسـعة، حيـث تسـتطيع الشـمس أن تنفـذ إلى هـذه الـدور، ولكـنهم يجعلـون المنـازل نفسـها فسـيحة الأرجـاء، ويحيطونهـا بالحـدائق والأفنيـة؛ لأن حـرارة الشـمس لا تطاق في الغرف في أثنـاء الصيف ما لم يتخللها الهواء، إن فـن المهنـدس الشـرقي يتلخص في أنـه يبني لـك منزلـك بحيـث لا تسـتطيع أن تـرى شـيئًا مـن خلال نوافذ جـارك، وبحيـث لا يسـتطيع جارك في الوقت نفسـه أن يرى شـيئًا مما يدور خلف نوافذ منزلك، والطريق الواضح للوصـول إلى هـذه الغايـة، هـو أن تكون الحجـرات بحيـث يحـيط بهـا فنـاء واسـع فسـيح الأرجـاء، وأن تكـون النوافـذ محتجبة بالستائر الخشبية المتشعبة التي تسمح لقبس ضئيل من النـور أن يـدخل، وتـدع قـدرًا وفيرًا مـن الهـواء يتخلـل أجزاءهـا، كمـا يسمح بالنظر من خلال هذه النوافذ دون أن يرى الغربـاء من المـارة ما بداخلها، والستائر الخشبية والفناء المنعزل من شـأنهما أن يعملا على تحقيـق ذلـك النظـام الـذي يحتمـه الإسـلام بفصـل الجنسـين بعضهما عن بعض.

والحجرات السفلية التي تواجه أبوابها الفناء مباشرة، وهي تلك الحجرات التي يستطيع الشخص أن يمشي فيها آمنًا ولا يخشى أن يرى وجهًا لأية امرأة في البيت، وإلى إحدى تلك الحجرات السفلية يتقدمنا مضيفنا، طالبًا إلينا في أدب جم أن نوليه الشرف بأن نظهر كما لو كنا في بيوتنا الخاصة، إنها حجرة الاستقبال، أو المنظرة، وهي بمثابة أنموذج لما ينبغي أن تكون عليه الغرف في العادة، والجزء الذي ندخل منه في الحجرة منخفض عن بقية الأجزاء، وإذا كان المنزل أنيقًا حقًا فإننا نجد هذا الجزء المنخفض مغطى بالرخام المصنوع من الفسيفساء، وفي وسطه نافورة تعمل على تبريد الهواء، وبإزاء الباب نجد قطعة مسطحة من الرخام محملة على أقواس، حيث توضع قلال الماء وأقداح القهوة وأدوات غسيل الأيدي ونحن نخلع أحذيتنا الخارجية ونتركها على الجزء الرخامي من الحجرة قبل أن نطأ ذلك الجزء المغطى بالبسط، وهنالك تجد الأرض مغطاة ببسط من الصوف الخشن،

كما نجد بمحاذاة ثلاثة من أضلاع الحجرة ديوانًا منخفضًا، وفي الحائط الخلفي مشربية بداخلها وسائد مريحة، وبأعلاها نحو من ست من النوافذ مكونة من قطع صغيرة من الزجاج الملون، ومن حولها إطار من الطلاء، فتكون بذلك على شكل زهرة، وهذه النوافذ من شأنها أن تسمح لنصف الهواء فقط بأن يمر من خلالها، أما الجانبان الآخران فمطليان بالجير، وليس بهما خشب أو قرميد،

بل أعدت بها بضعة أصونة خشبية منخفضة لها أبواب صغيرة تفتح بطريقة هندسية معقدة، وعلى جانبي كل صوان من هذه الأصونة كوة صغيرة مقوسة، وفي أعلاه رف وضعت عليه الأطباق المزخرفة والأوعية وغيرها من أدوات الزينة المنقوشة، أما سقف الحجرة فيتكون من ألواح مثبتة في جذوع ضخمة، ولونه في العادة أحمر قاتم، غير أنه في البيوت القديمة نجد في السقف غالبًا بعض النقوش الجميلة، ولا نجد في الحجرة مناضد أو كراسي أو مدفئات أو أي شيء من الأثاث الذي يعرفه الأوروبي، وحينما يحين وقت الطعام، يحضر خوان صغير مستدير، وإذا كان الجو باردًا قدم موقد أوقد فيه فحم الخشب، وبدلاً من الكراسي نجد القاهري يضع رجليه من تحته على الديوان ويجلس القرفصاء،

تلك الجلسة التي إذا فكر الأوروبي أن يجلس مثلها أصيب بتشنج في الأعصاب"[1]، ومما سبق يتضح مدى إعجاب المؤرخ البريطاني بالتصميم الهندسي المميز لهذه المنازل، وتجدر الإشارة إلى أن محتويات هذه المنازل من مفروشات ومصنوعات خشبية وزجاج وأواني وأوعية وخزف مصنوعة في مصر أو ناتجة عن ازدهار حركة التجارة، وكذلك فإن هذه المنازل ليست فقط تحفًا فنية وهندسية مدهشة،

١ نقلا عن كتاب (سيرة القاهرة) تأليف المؤرخ البريطاني (ستانلي لين بول) ترجمة د. حسن ابراهيم حسن، ود. علي ابراهيم حسن، ود. إداور حليم – مكتبة الأسرة ١٩٩٧- الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ولكنها مكيفة الهواء أيضًا بأسلوب ذلك العصر، حيث تتكون من جدران سميكة تعزل الحرارة وبها وسائل لتوزيع الهواء بأسلوب معين، وفسقيات فوقها شخشيخة وحولها ملاقف فيرتفع الهواء الساخن لأعلى ويهبط الهواء البارد لأسفل فيجعلك تشعر بوجود تكييف للهواء.

فن نحت الخشب:

ويضيف ستانلي لين بول في موضع آخر من كتابه فيقول: "إن فن نحت الخشب لم يزدهر ولم يبلغ أقصى مداه إلا أثناء حكم السلاطين المماليك وعلى الأخص حكم الملك الناصر، فقد كانت الأخشاب ذات الألوان المختلفة تستخدم لإحداث تأثير ملطف، كما حل الترصيع محل النحت في الكتل الصلبة، وأحيانًا كنا نجد كل صفيحة صغيرة منحوتة توضع في إطار من الأبنوس حافل بدوره هو الآخر بالنحت والنقوش، وكثيرًا ما كان يتكون من إطارين أو ثلاثة إطارات متميزة الواحد منها خارج الآخر، ومن الغريب أن الرسم الداخلي لم يكن يتكرر في صفيحتين، على الرغم من مئات الصفائح التي كانت توجد هناك، ولا يخفى علينا مقدار الجهد الذي كان يتكلفه نحت تلك الصفائح ووضعها، بعد نقشها إلى جانب بعضها البعض، وهناك نماذج كثيرة توجد في المساجد، كما أن هناك نماذج أرق منها تتمثل في الأبواب الخشبية المرصعة بالعاج في كنائس بابليون القبطية، والتي أغلب الظن أن المسلمين أخذوا منها فنهم،

إلا أن أروع نماذج لنحت المماليك توجد الآن في لندن، ذلك أن عددًا كبيرًا من تلك النماذج نقل أثناء حكم الخديوي إسماعيل، وحتى قبل ذلك، إلى المتحف الموجود جنوب كنسنجتون، فهناك نستطيع أن ندرس على مهل بعض النقوش العربية الفاخرة – والتي ليست جد متقنة في الوقت نفسه – المأخوذة من المنبر الذي بناه السلطان لاجين في مسجد ابن طولون عام ١٢٩٦م، وهناك قطع أخرى منحوتة من جامع المرداني ١٣٣٩م موضوعة في شكل غير مقبول فوق منضدة فرنسية، ومجموعة ثالثة لعلها من منبر جامع قوصون، موضوعة كذلك في إطار حديث، ولو أن النحت العربي ما زال محتفظًا برونقه وجماله، وأخيرًا نجد منبرًا كاملاً يحمل اسم قايتباي، ولكن لا يُعرف من أي مسجد أخِذ، وهذه الأشياء في مجموعها تكون معرضًا جميلاً لنقش الخشب في أحسن عصوره، ومهما يكن من شيء، فإن المجموعات فيها بعض الاختلاف، وأحيانًا شيء من التدهور، وأن دراسة فاحصة للرسوم سوف ترينا أن الفن وصل إلى أقصى مداه في نقوش جامع المرداني، أي بعد حكم الناصر مباشرةً".[1]

---

١ نقلاً عن كتاب سيرة القاهرة لستانلي لين بول، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، د. علي إبراهيم حسن، إداور حليم، طبعة مكتبة الأسرة ١٩٩٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ستانلي لين بول يصف القاهرة بشكل عام من أعلى القلعة:

يقول المؤرخ البريطاني ما ملخصه: "ولكنك إذا وقفت على أسوار هذا الحصن لم تعد ترى أي اختلاف أو تناقض، وإنما تبصر من حولك كل ما هو شرقي صميم، هناك تجد الكثير من القباب والمآذن والأديار ذات القباب، والمنازل المنبسطة الأسقف، منها الأصفر والأبيض، ومنها الأسمر، كذلك بقعًا خضراء هنا وهناك، يتخللها شجر الجميز العتيق، وفي الجهة المقابلة تشاهد صفوفًا من النخيل، وأخدودًا من الفضة حيث يجري ذلك النهر الطويل الصافي حالمًا بين ضفتيه القاتمتين، وهناك في الأفق حيث تأخذ الشمس في المغيب فتترك وراءها لونًا أحمر قانيًا، هناك تبصر الأهرام الخالدة، كذلك تشاهد المآذن الدقيقة وقد ارتفعت كثيرًا عن مستوى القباب، وسطوح المباني الأخرى، حيث تكوّن لنفسها عالمًا خاصًا بها، فيه الكثير من السحر والجمال، إن كل واحدة من هذه المآذن لها قصة جديرة بأن ترويها لنا، قصة انتصار أو انكسار، أو قصة مجاعة أو غزو، أو قصة ثقافة وزهد، وإذا ما اتجهت بنظرك شمالاً، شاهدت مآذن جامع المؤيد البديعة من فوق باب زويلة، إن هذه المآذن لتذكرنا بمئات الأحداث والقصص، ووراء هذه المآذن ترتفع مآذن حي النحاسين وهي أنموذج كامل للفن الإسلامي،

ووراء هـذه المـآذن أيضًـا نشـاهد بعـض الأبـراج، إنهـا أبـراج جـامع الحـاكم، وأمـام هـذه الأبـراج يقـع جـامع السـلطان حسـن، أكبر وأعظم المساجد التي ترجع إلى عهد المماليك، وإلى اليسار قليلاً يرى الناظر بروج وأروقة جامع ابن طولون الذي يطل على التلال التي تحيط به"، ويستمر المؤرخ البريطاني في الوصف منبهرًا بكل ما يراه من عراقة إلى أن يقول:

"وهنا نعرف القاهرة لأول مرة على أنها مدينة من مدن العصور الوسطى، بل أكثر من هذا نعرفها كمدينة لها تراثها المجيد منذ فجر التاريخ، فنحن حين نطل من أعلى أسوار القلعة، ندرك أن هناك محيطات أخرى غير تلك التي نعهدها زاخرة بالمياه، وأن حاضرة مصر لا يمكن أن يكون لها حدود أنسب من الصحارى التي هي بمثابة الدرع الواقي لها، والأهرام التي تعلن في جلاء ووضوح عن أعمالها المجيدة التي تمت منذ أقدم عصور التاريخ، ولقد قال الإسرائيلي الحكيم: من لم يشاهد القاهرة لم يشاهد الدنيا؛ فأرضها تبر، ونيلها سحر، ونساؤها حور الجنة في بريق عيونهن، ودورها قصور، ونسيمها عليل، عطر كعود الند ينعش القلب، وكيف لا تكون القاهرة كذلك وهي أم الدنيا"[١]،

---

١ مقتطفات من صفحة ٤٣-٤٦ من كتاب سيرة القاهرة – تأليف ستانلي لين بول – الهيئة المصرية العامة للكتاب - مكتبة الأسرة -١٩٩٧ .

ويذكرنا هذا الكلام بما قاله ابن خلدون: "رأيت حاضرة الدنيا" ووصف ابن بطوطة عندما قال: هي أم البلاد.

ويأخذنا الحديث عن اهتمام المماليك بالبناء فنستعرض معًا ما كتبه المؤرخون عن بعض الشخصيات المملوكية على اختلاف عصورهم من بحرية وبرجية وعثمانية، ولنخصص إن شاء الله الفصل القادم عن هذا الموضوع.



الأعمال المعمارية لبعض سلاطين وأمراء المماليك

منشآت السلطان الناصر محمد بن قلاوون:

تولى السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون حكم مصر ثلاث مرات متباعدة، كانت الأولى سنة ١٢٩٣ م، والثانية سنة ١٢٩٨م، والثالثة سنة ١٣٠٩م، وقد شيّد الناصر محمد مسجدًا ما زال موجودًا حتى الآن بالقلعة بجوار مسجد محمد علي، وإن كانت ضخامة مسجد محمد علي وارتفاعه تجذب الانتباه عن جامع الناصر محمد، وتعتبر مئذنة جامع الناصر وقبته وكذلك جدرانه الداخلية قد غشيت جميعها ببلاطات من القيشاني الأخضر اللون، ولقد اهتم السلطان الناصر بتعمير منطقة بولاق فسكنها الأمراء والجند والكتاب والتجار والعامة، ولم يقتصر الناصر على تشييد العمائر الدينية والمباني السكنية فحسب، بل شملت حركة البناء والتعمير إقامة مجاري المياه والقناطر والعيون، ومن أهم هذه المباني مجرى عيون فم الخليج لتوصيل مياه النيل إلى قلعة الجبل، ويعد هذا المجرى من الآثار العمرانية التي تفخر بها القاهرة في العصور الوسطى، والتي لا تزال باقية حتى الآن، كما شيد الناصر المدرسة الناصرية التي تقع بشارع المعز لدين الله الكائن بحي النحاسين، كذلك شرع الناصر في تجديد المارستان الكبير المنصوري الذي أسسه السلطان قلاوون،

وبنى الناصر سبيلاً ألحقه بمدرسته وقبة ألحق بها مكتبة عظيمة وشيد القصر الأبلق في قلعة الجبل، وقد ازداد تعلق شعب مصر

بالناصر محمد لما أتاه من جليل الأعمال وما تكشف لشعبه فيه منه جميل الخصال، ويعتبر عصر الناصر محمد بن قلاوون أزهى عصور دولة المماليك البحرية،

إذ فيه توطدت دعائم هذه الدولة وبدأت أساليب الحكم والإدارة في الاستقرار، وكانت القاهرة في عصر الناصر حاضرة لإمبراطورية شاسعة بسطت نفوذها على مصر والشام وأعلى الفرات والحجاز واليمن والنوبة وبرقة وتونس وبعض الجزر بالبحر المتوسط.

ويعد الناصر محمد من السلاطين الأبطال الذين خاضوا غمار الحروب وأحرزوا النصر تلو النصر، وفي سنة ١٣٠٣ تقابل المغول بقيادة زعيمهم غازان عند مرج الصفر على مقربة من حمص مع المماليك بقيادة السلطان الناصر محمد، فهلك معظم جيش المغول وهزموا ومات كثير منهم، وتعتبر هذه الواقعة من المواقع الحاسمة في التاريخ، وعلى إثرها مات غازان كمدًا، وقوبل الناصر حين عودته من الشام إلى مصر بأعظم الترحيب، وأقيمت له أقواس النصر في القاهرة وخرج الشعب المصري يحيّي قاهر المغول، وعني الناصر محمد بموارد الدولة المالية فوسع نطاقها حتى يستطيع تنفيذ المشروعات النافعة لجميع مرافق البلاد والقيام بما تتطلبه الدولة من ضروب الإصلاح مع إبطال العديد من الضرائب، كل ذلك أدى إلى توافر الأقوات ورخص أسعارها وسهولة الحصول عليها".[1]

١ نقلاً باختصار عن كتاب "هؤلاء حكموا مصر" – حمدي عثمان – الهيئة المصرية العامة للكتاب.

جامع السلطان حسن:

وإذا كان الحديث يتناول العمارة في عصر المماليك فلا بد من الإشارة لمعجزة العمارة الإسلامية في العصر المملوكي ألا وهو جامع السلطان حسن بن محمد بن قلاوون الذي يصفه البعض على أنه جامع والبعض الآخر يعتبره مدرسة، فهل هو جامع أم مدرسة؟ وعن هذا الموضوع وتحت عنوان "العلم بين المسجد والمدرسة" كتب الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أستاذ تاريخ العصور الوسطى ما ملخصه: يقول المقريزي ما نصه: "وفي هذا الجامع عجائب من البنيان منها المدارس الأربع التي بدور قاعة الجامع" إذًا فقد أقيمت في دور قاعة الجامع أربع مدارس لها أربعة أواوين متقابلة بحيث تختص كل مدرسة منها بمذهب من مذاهب أهل السُنة الأربعة، ومعنى هذه العبارة أن المدارس أنشئت في قاعة الجامع وليس الجامع هو الذي أقيم في ساحة المدرسة حتى غدت هذه المدارس من عجائب فن البنيان في هذا الجامع، فالجامع هو الأصل وهو الهدف وهو الأساس، ولكي تعم الفائدة ويعظم الأجر والثواب أقيمت به مدارس لتعليم علوم الدين وأحكامه وشرائعه، على أنه ثمة مرة واحدة في كتابه المواعظ استخدم المقريزي فيها عبارة (مدرسة الناصر حسن بسوق الخيل)، ولكن هذه العبارة وردت في تعداده لأسماء المساجد التي تقام فيها الجمعة، ونص العبارة:

وقد بلغت عدة المساجد التي تقام بها الجمعة مائة وثلاثين مسجدًا منها جامع شيخو – جامع قانباي – جامع ألماس – جامع قوصون – جامع الصالح – مدرسة السلطان حسن بسوق الخيل"، والمقريزي هنا يضع مؤسسة السلطان حسن في قائمة المساجد الجامعة وليس في قائمة المدارس، وربما نعت هذه المؤسسة باسم الشهرة الذي عرفت به،

ولم يكن المقريزي هو المؤرخ المعاصر الوحيد الذي أطلق على مؤسسة السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون اسم جامع، وإنما هناك مؤرخ آخر عاصر الناصر حسن وعاش أيامه هو الحسن بن عمر المعروف بابن حبيب المتوفى سنة ٧٧٩هـ - ١٣٧٧م صاحب كتاب (تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه) ومن الواضح أن ابن حبيب ألف كتابه الضخم هذا الذي يقع في ثلاثة مجلدات مخصصًا إياه للتأريخ لأسرة قلاوون، أعني السلطان المنصور قلاوون وسلالته من الحكام حتى أيام ابن حبيب نفسه، ولذا يعتبر هذا الكتاب مصدرًا أساسيًا للوقوف على أخبار تلك الحقبة.

يقول ابن حبيب ما نصه: "وفيها شرع السلطان الملك الناصر حسن أيده الله في عمارة المكان الذي أنشأه بالرميلة تحت قلعة الجبل ظاهر القاهرة المحروسة، وهو بناء مشيد محكم عظيم الشأن مرفوع القواعد، عالي الأركان، متسع الفناء يشتمل على جامع فسيح له صحن كبير فيه أربعة أواوين متقابلة، وفيه المنبر، وبه تقام الجمعة،

وعلـى كتفـي الإيـوان الشـرقي بابـان عظيمـان يـدخل منهمـا إلـى مدرستين، وعلى كتفي الإيوان الغربي مثل ذلك، وعلى كتفي الإيوان الشمالي بابان أعظم من الأربعة المشار إليهن، الأيمن منهما مجاز إلى الجامع المذكور، وبوسط هذا الجامع بركة ماء عليها قبة عظيمة، وعلى بابه سبيل".

في جامع السلطان قم يا من أتى مصرًا وطف سعيًا بذياك الحرم
وانظر بناء ينجلي للناس في ثوب الشباب واطرح ذكر الهرم[١]

منشآت السلطان الظاهر سيف الدين برقوق:

تولى السلطان المملوكي الظاهر سيف الدين برقوق حكم مصر سنة ١٣٨٢م، وكان محبًا للفروسية ميالاً للعب بالرمح، ولقد ألغى السلطان برقوق الكثير من الضرائب فنشطت الحركة التجارية وهبطت أسعار السلع المستوردة، الأمر الذي شجع الكثير من التجار الأجانب وخاصة الشرقيين منهم على الاتّجار مع مصر، وقد اتسع ملك مصر في عهده، فقد خطب باسمه في أماكن لم يخطب لأحد قبله فيها من سلاطين المماليك، فخطب باسمه في مدينة تبريز وفي الموصل وفي ماردين وسنجار بجانب مصر وبرقة والشام والحجاز واليمن، وضربت السكة باسمه في هذه الأماكن،

١ نقلاً عن كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية – إعداد د. عبد العظيم رمضان – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة ٢٠٠٠

وعندما توفي الظاهر برقوق دفن بالصحراء مع مجموعة من العلماء والصالحين، وكان قد أوصى أن يبنى لهم مدفن وأن يلحق به مسجد وخانقاه، ولقد نفذ ابنه الناصر فرج الوصية، وتعتبر مدرسة "مسجد" وخانقاه السلطان برقوق أولى المنشآت المعمارية في دولة المماليك الجراكسة بمصر، وهي ملاصقة لمدرسة الناصر محمد بن قلاوون وتطل على شارع المعز لدين الله في "بين القصرين"، أما تخطيط المدرسة فهو كبقية المدارس المملوكية، فهي تتكون من صحن مكشوف بوسطه فسقية عليها قبة مقامة على ثمانية أعمدة وتحيط بها أربعة إيوانات، ولقد استخدم الرخام لأول مرة في زخرفة الواجهة الرئيسية وزخرفة المئذنة، أما مدفن السلطان برقوق فيكفي هذا الأثر فخرًا أن صورته استعملت رمزًا لأحد العملات الورقية في مصر، ولقد شيد ذلك المدفن السلطان الناصر فرج بن برقوق لأبيه، واستغرق بناؤه اثنتي عشرة سنة، واستغل هذا المكان كمدفن وخانقاه للتعبد ومدرسة لتدريس المذاهب الأربعة ومسجدًا جامعًا وعلى عهد الظاهر برقوق ارتفع نجم القائد تيمورلنك ملك التتار ودارت عدة صراعات بسبب ذلك في المنطقة، ولقد عاصر أيضًا جلوس السلطان الظاهر برقوق على عرش مصر مقدم الفيلسوف المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون إلى مصر حيث وصل إلى الإسكندرية من البلاد المغربية واندمج منذ وصوله إلى مصر في نسيج حياتها يدرّس في الجامع الأزهر ويتولى رئاسة القضاء الحنفي".[1]

---

١ نقلا عن كتاب (هؤلاء حكموا مصر)– حمدي عثمان، وكتاب (مصر في العصور الوسطى - الأوضاع السياسية والحضارية – د. محمود الحويري).

قلعة قايتباي بالإسكندرية:

تم بناء هذه القلعة على أساس منارة الإسكندرية القديمة، وقد أنشأها الملك الأشرف قايتباي سنة ١٤٧٩ م، واشتملت على مسجد بقيت منارته إلى ما بعد الاحتلال الفرنسي لمصر وتأثر بضرب الإسكندرية سنة ١٨٨٢ أسوأ الأثر، وكانت أحداث ضرب الإسكندرية قد تسببت في تخريب هذه القلعة وهدم أبراجها وقسم كبير من واجهاتها، وبقيت متخربة إلى أن عنيت إدارة حفظ الآثار العربية بإصلاحها، وقد أصلحت أبراجها وما يعلوها من أبنية بعد إعادتها لحالتها الأصلية، وهي تبدو لزائر الإسكندرية من كل جهة والسلطان قايتباي هو السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي الجركسي وهو من عصر دولة المماليك البرجية، ولد في سنة ١٤٢٣ م، وبويع بالسلطنة سنة ١٤٦٨ م، وقد ظل ملكًا لمصر نحو ٢٩ سنة، وأقام كثيرًا من المنشآت المعمارية من مساجد ومدارس ووكالات ومنازل وأسبلة وقناطر للمياه، كما عني بالعمارة الحربية وبالحصون فأنشأ قلعة الإسكندرية وأخرى برشيد، وقد توفي في سنة ١٤٩٦ م وينسب إليه ما يزيد عن سبعين أثرًا إسلاميًا ما بين إنشاء وتجديد، وتعتبر مجموعة قايتباي بالقرافة الشرقية من أبدع وأجمل المجموعات المعمارية في مصر الإسلامية، وترجع أهميتها إلى جمال تنسيق المجموعة مع بعضها، وهي تتكون من مدرسة ومسجد وسبيل وكتاب وضريح ومئذنة،

وقد لعبت دقة الصناعة وكذا جمال النسب دورًا مهمًا في إبراز جمال هذا الأثر المعماري القيم".[1]

منشآت السلطان الأشرف قنصوة الغوري:

كان السلطان الغوري يحكم مصر والشام والحجاز كمن سبقوه من سلاطين المماليك، وكان يلقب بملك البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين، وكانت مصر في ذلك العهد تسيطر على حركة التجارة العالمية، إلا أنها قد تأثرت إلى حد ما باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، وكانت القاهرة من أرقى عواصم العالم فنًا وحضارة وعلمًا وعمارة، وقد كتب المؤرخ الكبير ابن إياس الحنفي عن السلطان الأشرف قنصوة الغوري ما يلي: "وأما ما أنشأ من العمائر التي بالقاهرة فمن ذلك الجامع والمدرسة اللتان أنشأهما في الشرابشيين،[2] والوكالة والحواصل والربوع التي أنشأها خلف المدرسة عند المصبغة والمئذنة التي أنشأها في الجامع الأزهر وهي برأسين، وأنشأ هناك الربع والحوانيت التي بالسوق خلف الجامع، وأنشأ الربوع التي بخان الخليلي، وجدد عمارة خان الخليلي وأنشأ به الحواصل والدكاكين، وأنشأ الميدان الذي تحت القلعة ونقل إليه الأشجار من البلاد الشامية، وأجرى إليه ماء النيل من سواقي نقالة،

---

١ نقلاً عن كتاب (العمارة الإسلامية في مصر) تأليف د. كمال الدين سامح – الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٠ صفحة ٤٧ وصفحة ٤٨.

٢ منطقة الغورية حاليًا.

وأنشأ به المناظر والبحرة وأنشأ جامعًا خلف الميدان عند حوش العرب بخطبة ومأذنة، وجدد عمارة قاعات القلعة منها قاعة البيسرية وقاعة العواميد وقاعة البحرة، وأنشأ المقعد القبطي الذي بالحوش، وجدد عمارة سبيل المؤمني وجعل سقفه عقودًا بالحجر، وأنشأ الربع والدكاكين التي بسويقة عبد المنعم، وأنشأ الربع والوكالة التي في الجسر الأعظم، وجدد عمارة ميدان المهارة الذي بالقرب من قناطر السباع وبناه بالفص الحجر المشهر بعدما كان مبنيًا بالطوب اللبن، وجدد عمارة المقياس وأنشأ به القصر على تلك البسطة التي كانت بها، وأنشأ بها المقعد المطل على البحر، وجدد عمارة قاعة المقياس، والجامع الذي هناك، وجدد عمارة قنطرة بني وائل، والقنطرة الجديدة، وقنطرة الحاجب، وأنشأ بثغر رشيد سورًا وأبراجًا لحفظ الثغر، وجدد عمارة أبراج الإسكندرية، وأصلح طريق العقبة وأنشأ هناك خانًا بأبراج على بابه وجعل فيه الحواصل مثل الخان الذي في العقبة وحفر هناك الآبار في عدة مواضع من مناهل الحجاج، وأنشأ بمكة المشرفة مدرسة ورباطًا للمجاورين والمنقطعين هناك، وأجرى عين بازان بعد ما كانت قد انقطعت من سنين، وأنشأ بجدة سورًا على ساحل البحر الملح وفيه عدة أبراج بسبب حفظ بندر جدة من الفرنج، جاء هذا السور من أحسن المباني هناك، وأنشأ على شاطئ البحر الملح بالينبع الصغير سورًا وأبراجًا منيعة، وله غير ذلك من الآثار الحسنة عدة مبانٍ بها نفع للمسلمين.

وفي الجملة إن السلطان الغوري كان خيار ملوك المماليك الجراكسة على عوج فيه، ولم يجئ من بعده أحد من الملوك يشابهه في أفعاله ولا علو همته ولا عزمه في الأمور، وكان كفئا تامًا للسلطنة، مبجلا في المواكب تملأ منه العيون".[1]

الأمير عبد الرحمن كتخدا أمير البنائين في العصر العثماني

عبد الرحمن كتخدا – من مماليك العصر العثماني - بنّاء عظيم عالي الهمة في أيام العثمانيين، يعتبر في مقدمة الساعين في تجميل القاهرة وترصيعها بمبانيه، كان صاحب نفوذ قبل أيام علي بك الكبير، وقد ورث عبد الرحمن ميوله الفنية عن أبيه الذي استطاع أن يشيد مما جمعه من ثروة - مدرسة ومسجدًا وسبيلاً بالقرب من بركة الأزبكية، وفي يوم افتتاحها ملأ حوضًا كبيرًا وكل ما وصلت إليه يده من الأواني بالشراب المحلى بالسكر ليسقي الأهالي، وبنى منشآت خيرية أخرى، كان الأمير عبد الرحمن كتخدا مصر (محافظًا لها) في عام ١٧٤٤ وقد عشق البناء، فأنشأ وجدد كثيرًا من المساجد والأسبلة والأضرحة، وقد اشتهر عبد الرحمن بما أدخله من زيادات في الجانب الشرقي من الأزهر،

١ نقلا عن كتاب (المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور) تأليف محمد بن أحمد بن إياس الحنفي – مكتبة الأسرة ١٩٩٦صفحة ٥٦ ،٥٧.

ومن بينها ضريحه الخاص وجزء من المدخل وخمسون عمودًا من رواق القبلة ومنبر ومحراب جديدان، وشيّد مئذنتين وبابي الشوربة والصعايدة، وجمع عبد الرحمن كتخدا في أكثر مبانيه بين الجمال والفن، ويتجلى ذلك في سبيله الرائع الواقع عند ملتقى شارعي النحاسين والجمالية والمعروف باسمه حتى اليوم، ولهذا السبيل ثلاث واجهات بها ثلاث فتحات عقودها من الرخام الملون و"تواشيحها" من الرخام الدقيق موضوع عليها شبابيك نحاسية، ويعلو السبيل كُتّاب ذو مظلات وحواجز من خشب الخرط، ويتضمن السبيل كتابات تحتوي على اسم المُنشئ وتاريخ الإنشاء (١١٥٧هـ/١٧٤٤) أما حجرة السبيل فقد غشيت جدرانها بالقاشاني، وعلى جزء من جداره الشرقي رسم صورة الكعبة الشريفة، وأنشأ الأمير عبد الرحمن عند باب الفتوح مسجدًا وصهريجًا وكُتابًا، وفي مدخل الأزهر أعاد بناء المدرسة الطبرسية وجعلها مع مدرسة الأقبغاوية المقابلة لها من داخل الباب الكبير من أحسن المباني فخامة وبهاء، كما أنه بنى المشهد الحسيني، وأنشأ عند باب البرقية المعروف بالغريب مسجدًا وصهريجًا وحوضًا وسقايةً ومكتبًا، وشيد مسجدًا بجهة الأزبكية ومكتبًا وحوضًا، وبنى مشهد السيدة زينب، ومشهد السيدة سكينة والمشهد المعروف بالسيدة عائشة بالقرب من باب القرافة، والسيدة فاطمة والسيدة رقية، وعمر المدرسة السيوفية، كما جدد المارستان المنصوري وغير ذلك من المساجد والأسبلة.

ومن أجمل عمائره دار سكنه بحارة عابدين، وكانت من الدور العظيمة المحكمة الإتقان والبناء، لم تماثلها دار بمصر في حسنها وزخرف مجالسها وبابها من النقوش والرخام والقاشاني، وغرس بها بستانًا بديعًا بداخله قاعة متسعة بوسطها نافورة مفروشة بالرخام، وموجز القول أن عدد المساجد التي بناها أو جددها عبد الرحمن كتخدا بلغ ثمانية عشر مسجدًا، يضاف إليها الزوايا والأسبلة والسقايات والمكاتب والقناطر.. إلخ.

وعظم شأن عبد الرحمن حتى استفحل أمر علي بك الكبير، فأخرجه منفيًا إلى الحجاز وذلك في أول ذي القعدة عام ١١٧٨هـ (١٧٦٤)، فأقام بالحجاز اثنتي عشرة سنة حتى أحضره يوسف بك أمير الحج في عام ١١٩٠هـ (١٧٧٦) بعد أن استولى عليه الهرم، فدخل إلى بيته مريضًا، فأقام فيه أحد عشر يومًا ثم مات، ودفن بالمدفن الذي أعده لجثمانه بجوار باب الصعايدة بالأزهر".[١]

١ نقلاً عن كتاب عبد الرحمن زكي (بناة القاهرة في ألف عام)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص ٧٨- ٨٠

مجرد نماذج وأمثلة فقط:

وهكذا لم يخل العصر العثماني نفسه من مماليك محبين للبناء، وكل ما سبق كان مجرد نماذج للأعمال المعمارية للمماليك وليس حصرًا لها بالطبع سواء كانت من عصر المماليك البحرية أو البرجية وحتى العصر العثماني، وبعد أن استعرضنا المنشآت المعمارية بإيجاز شديد سنحاول استعراض بعض العادات والتقاليد التي كانت مرعية في ذلك العصر حتى نقترب أكثر من المماليك في الفصل القادم، ثم بعد ذلك في الفصول التالية سنستعرض أهم الأحداث والمعارك الحربية بإيجاز شديد أيضًا، وسنخصص لكل عصر من عصور المماليك فصلاً يتضمن أشهر الأحداث التي ستساعدنا في هذا البحث لنصل إلى غايتنا منه إن شاء الله، أما الأحداث التي تم الإشارة إليها في سياق الحديث عن الأعمال المعمارية فلن يتم تكرارها.



بعض عادات وتقاليد سلاطين المماليك

التقاليد عند السفر:

كان من رسوم السلطان في خروجه إلى سرياقوس وغيرها من الأسفار ألا يتكلف إظهار كل شعار السلطنة، بل يكون الشعار في موكبه السائر فيه جمهور مماليكه مع المقدم عليهم واستاداره، وأمامهم الخزائن والجنائب والهجن، وأما هو نفسه فإنه يركب معه عدة كبيرة من الأمراء الكبار والصغار من الغرباء والخواص، وجملة من خواص مماليكه، ولا يركب في السير برقبة ولا بعصائب بل يتبعه جنائب خلفه ويقصد في الغالب تأخير النزول إلى الليل، فاذا جاء الليل حملت قدامه فوانيس كثيرة ومشاعل، فإذا قارب مخيمه تلقى بشموع موكبية في شمعدانات كفت، وصاحت الجاويشية بين يديه، ونزل الناس كافة إلا حملة السلاح فإنهم وراءه والوشاقية أيضًا وراءه وتمشي الطبردارية حوله.

حتى إذا وصل القصور بسرياقوس أو الدهليز من المخيم، نزل عن فرسه ودخل إلى الشقة وهي خيمة مستديرة متسعة ثم منها إلى شقة مختصرة ثم منها إلى اللاجوق، وبدائر كل خيمة من جميع جوانبها من داخل سور خركاه، وفي صدر اللاجوق قصر صغير من خشب

برسم المبيت فيه، وينصب بإزاء الشقة الحمام بقدور الرصاص والحوض، على هيئة الحمام المبني في المدن إلا أنه مختصر.

فإذا نام السلطان طافت به المماليك دائرة بعد دائرة، وطاف بالجميع الحرس وتدور الزفة حول الدهاليز في كل ليلة وتدور بسرياقوس حول القصر في كل ليلة مرتين: الأولى منذ يأوي إلى النوم والثانية عند قعوده من النوم، وكل زفة يدور بها أمير جاندار وهو من أكابر الأمراء وحوله الفوانيس والمشاعل والطبول والبياتة، وينام على باب الدهليز النقباء وأرباب النوب من الخدم، ويصحب السلطان في السفر غالب ما تدعو الحاجة إليه حتى يكاد يكون معه مارستان، لكثرة من معه من الأطباء وأرباب الكحل والجراح والأشربة والعقاقير وما يجري مجرى ذلك، وكل من عاده طبيب ووصف له ما يناسبه، يصرف له من الشراب خانه أو الدواء خانة المحمولين في الصحبة، والله أعلم.

وكان من مصطلح الملوك أن تكون تفرقة السلطان الخيول على الأمراء في وقتين: أحدهما عندما يخرج إلى مرابط خيله في الربيع عند اكتمال تربيعها، وفي هذا الوقت يعطي أمراء المئين الخيول مسرجة ملجمة بكنابيش مذهبة، ويعطي أمراء الطبلخانات خيلا عريًا، والوقت الثاني يعطي الجميع خيولا مسرجة ملجمة بلا كنابيش بفضة خفيفة وليس لأمراء العشراوات حظ في ذلك إلا ما يتفقدهم به على سبيل الإنعام، ولخاصكية السلطان المقربين من أمراء المئين

وأمراء الطبلخانات زيادة كثيرة من ذلك بحيث يصل إلى بعضهم المائة فرس في السنة".[1]

التقاليد عند الركوب إلى الميدان:

كان من شعار السلطان أن يركب إلى الميدان وفي عنق الفرس رقبة حرير أطلس أصفر بزركش ذهب فتستر من تحت أذني الفرس إلى حيث السرج، ويكون قدامه اثنان من الأوشاقية راكبين على حصانين أشهبين برقبتين نظير ما هو راكب به، كأنهما معدان لأن يركبهما، وغاشية السرج محمولة أمام السلطان وهي أديم مزركش مذهب يحملها الركابدارية قدامه، وهو ماش في وسط الموكب، ويكون قدامه فارس يشبب بشبابة لا يقصد بنغمها الإطراب، بل ما يقرع بالمهابة سامعة ومن خلف السلطان الجنائب وعلى رأسه العصائب السلطانية وهي صفر مطرزة بذهب بألقابه واسمه.
وهذا لا يختص بالركوب إلى الميدان بل يعمل هذا الشعار أيضًا إذا ركب يوم العيد أو دخل إلى القاهرة أو إلى مدينة من مدن الشام ويزداد هذا الشعار في يوم العيدين ودخول المدينة برفع المظلة على رأسه، ويقال لها الحبر وهو أطلس أصفر مزركش من أعلاه قبة وطائر من فضة مذهبة، يحملها يومئذ بعض أمراء المئين الأكابر وهو راكب فرسه إلى جانب السلطان، ويكون أرباب الوظائف والسلاحدارية كلهم خلف السلطان، ويكون حوله وأمامه الطبردارية

---

١ نقلاً عن كتاب "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" المعروف بالخطط المقريزية – الجزء الثالث – تأليف تقي الدين أحمد بن على المقريزي – تحقيق محمد زينهم، مديحة الشرقاوي – مكتبة مدبولي – من صفحة ٣١ وما بعدها.

وهـم طائفـة مـن الأكـراد ذوي الإقطاعـات والإمـرة ويكونـون مشـاة وبأيديهم الأطبار المشهورة".[1]

وصف عودة السلطان من رحلة الحج:

مثال على ذلك وصف عودة السلطان الأشرف قايتباي من رحلة الحج كما ورد بكتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس الحنفي حيث كتب: "وفيه قدم مبشر الحاج وهو شخص من الخاصكية يقال له اسنباي، وقد استمر اسمه بالمبشر بعد ذلك فأخبر بسلامة السلطان وأنه دخل إلى مكة في موكب حافل وكان له يوم مشهود، ولقاه أمير مكة من مسيرة يومين، وأنه تصدق على فقراء بمكة بخمسة آلاف دينار، وتواضع تواضعًا وخضوعًا إلى الغاية، وكان بطول الطريق لا يتكلم في شيء يتعلق بالأحكام بين الناس، وفعل في الطرقات أشياء كثيرة من وجوه البر والمعروف، فحصل لاسنباي المبشر جملة خِلع، ومالاً له صورة، من الأمراء وأعيان الناس، ومن خوند زوجة السلطان وغير ذلك من أرباب الدولة، وفيه جهز الأتابكي أزبك ويشبك الدوادار وجماعة من الأمراء إقامات لملاقاة السلطان من العقبة، وخرج الأمير أزبك اليوسفي أحد الأمراء المقدمين صحبة ذلك، وخرج معه جماعة كثيرة من أرباب الدولة لملاقاة السلطان من العقبة، واهتم الأمير

١ نقلاً عن كتاب "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" المعروف بالخطط المقريزية – الجزء الثالث – تأليف تقي الدين أحمد بن على المقريزي – تحقيق محمد زينهم، مديحة الشرقاوي – مكتبة مدبولي – من صفحة ٣١ وما بعدها.

يشبك الدوادار ببياض أماكن بالقلعة ودهان أبوابها وضرب الرنوك عليها وجلا واجهة القصر الأبلق وما يليه حتى ظهر رخامه الملون، وقد احتفل في إصلاح ذلك جدًا.

سنة خمس وثمانين وثمانمائة (١٤٨٠م): فيها، في المحرم بعث السلطان نجابًا إلى الأمراء وأخبر النجاب بأن السلطان دخل إلى المدينة الشريفة، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وزار النبي صلى الله عليه وسلم وأنعم على الفقراء الذين بها بخمسة آلاف دينار، وأنه رحل نحو الينبع قاصدًا للعقبة، ثم رحل عنها وهو واصل عن قريب، ثم رسم لهم بألا يخرج لملاقاته أحد من الأمراء، وأن السلطان ينزل بقبة الأمير يشبك التي بالمطرية، فبادر الأمراء بالخروج إلى هناك ونصبوا الخيام، ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قد وصل إلى البويب، فلما تحقق الأمراء ذلك ركب الأتابكي أزبك والأمير يشبك الدوادار وبقية الأمراء من المطرية وتوجهوا إلى ملاقاة السلطان، فلما وصلوا إلى البويب اجتمعوا بالسلطان هناك وساروا قدامه حتى وصل إلى الوطاق الذي بالمطرية، وكان له هناك موكب حافل، وكان دخوله في ثاني عشر المحرم قبل دخول الحاج بثمانية أيام، فلما نزل بقبة الأمير يشبك مد له الأمير أزبك الأتابكي هناك مدة حافلة جدًا وبات السلطان هناك وبات عنده قضاة القضاة ومشايخ العلم وهنأوه بقدومه.

فلما كان يوم الاثنين رابع عشر ركب السلطان من هناك وحمل الأتابكي أزبك على رأسه القبة والطير، وركب قدامه الأمراء

والعسكر وهم موكبون كالأعياد، وسارت الأمراء والقضاة الأربعة قدامه، فدخل من باب النصر، وشق من القاهرة، وقد زينت له زينة حافلة، واستمر في هذا الموكب العظيم،

وطلب طلبًا حافلا ولعب قدامه بالغواشي الذهب وكان له يوم مشهود إلى أن طلع إلى القلعة، فلما طلع فرشت له خوند عدة شقق من باب القلعة إلى الحوش، ونثرت على رأسه خفائف الذهب والفضة وتوشحت الخدام بالبنود الذهب والحرير الأصفر، وتخلقت بالزعفران، فلما دخل السلطان إلى الحوش، مد له هناك الأمير يشبك مدة حافلة أعظم من مدة الأتابكي أزبك التي مدها له بالقبة، ثم أن السلطان خلع على من كان معه من أرباب الوظائف ونزلوا إلى بيوتهم وانفض ذلك الموكب، وعدت هذه الحجة من النوادر الغريبة، ودخل عليه جملة تقادم من مال وتحف تعدل مائتي ألف دينار من أمير مكة وقضاتها، ومن أمير الينبع وغير ذلك.
وقد نظم الشعراء في هذه الواقعة عدة قصائد، فمن ذلك:

قدم السرور بمقدم السلطان ... من حجة المقبول بالرضوان
سلطاننا الملك الهمام الأشرف ... الراقي سماء الحسن والإحسان
فهناؤنا ببقائه، في نعمة ... وسلامة فرض على الأعيان
لما نوى حجًا ولبى مُحرمًا ... عم الأمان مراتع الغزلان
والوحش في أبياتها والدوح في ... أنباتها والطير في الطيران
ثم الصلاة على النبي المصطفى ... عدد الرمال بجملة الكثبان

فلما استقر السلطان بالقلعة، أخذ في أسباب تفرقة الهدية على الأمراء، فابتدأ بالأتابكي أزبك ثم بقية الأمراء كل من هو في منزلته،

ثـم المباشـرين وأربـاب الدولـة، وكـان الأمـراء والمباشـرون قـدموا للسلطان أيضًا تقادم حافلة، ما بين مال وخيول وقماش وغير ذلك.

الاحتفال بفتح السد ووفاء النيل:

ولتوضيح ذلك سنورد بعض سطور من كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور لأحمد بن محمد بن إياس الحنفي المصري حيث كتب ما يلي: "وفي يوم الخميس المقدم ذكره صنع السلطان – الأشرف قنصوة الغوري - وليمة حافلة بالمقياس، واجتمع بها القضاة الأربعة، وأعيان الناس من العلماء وغير ذلك، ومد هناك الأسمطة الحافلة، واجتمع هناك قراء البلد قاطبة والوعاظ وكانت ليلة حافلة، والسلطان كل سنة يصنع مثل ذلك بالمقياس قرب وفاء النيل.

وفي سنة عشر وتسعمائة صنع وليمة بالمقياس مثل هذه فزاد الله تعالى في النيل المبارك تلك الليلة خمسين إصبعًا دفعة واحدة، فعد ذلك من النوادر، وفي يوم الاثنين ثاني عشرينه حضر إلى الأبواب الشريفة الأمير طومان الدوادار، وكان له مدة وهو مسافر في الصعيد بسبب ضم المغل، فلما كان يوم الأحد بلغ السلطان وصوله إلى الجيزة فنزل إلى المقياس ولاقاه من هناك، وكذلك قاصد ابن عثمان، فلما طلع إلى القلعة يوم الاثنين المذكور خلع عليه السلطان خلعة حافلة، ونزل من القلعة في موكب مشهود، وصحبته سائر الأمراء المقدمين والمباشرين وأعيان الناس، واستمر

على ذلك حتى دخل إلى داره، وخلع عليه السلطان في ذلك اليوم فوقاني أخضر بطرز يلبغاوي عريض،

ومشت الأفيال وهي مزينة قدامه في ذلك الموكب وشق من الصليبة، وفي يوم الثلاثاء ثالث عشرينه توفي الأمير ماماي جوشن أحد الأمراء المقدمين الألوف، وكان رئيسًا حشمًا جميل الهيئة قليل الأذى بين الأمراء، ومات وهو في عشر الستين، وقيل أصله من مماليك الظاهر خشقدم من كتابيته، واشتراه الأشرف قايتباي من بيت المال وأعتقه فهو من جملة معاتيق الأشرف قايتباي ومن مماليكه، فلما بلغ السلطان وفاته نزل وصلى عليه، وكانت جنازته مشهودة رحمة الله تعالى عليه، وفي يوم الثلاثاء المذكور كان وفاء النيل المبارك، أوفى بعد الظهر، وعلق الستر على شباك القصر الذي أنشأه السلطان على بسطة المقياس، وقد أوفى الله الست عشرة ذراعًا وأصبعين من سبع عشرة، ووافق ذلك ثاني عشرين مسري، وقد أبطأ هذا النيل عن نيل السنة الماضية بسبعة أيام، وكانت الناس بسببه في غاية الاضطراب، وفي يوم الأربعاء رابع عشرينه، الموافق الثالث عشرين مسري، فتح السد وكان يومًا مشهودًا قل أن يقع مثله في الفتك والفرجة، ورسم السلطان للأتابكي سودون العجمي بأن يتوجه ويفتح السد على العادة، فكان له في ذلك موكب حافل، وخلع عليه السلطان فوقاني أخضر بطرز يلبغاوي عريض، وحصل للناس غاية الجبر بكسر السد في ذاك اليوم، وقد قيل في المعنى:

كسر الخليج وكان ذلك نعمة　　سرّت قلوب العالمين لبشره
ومن العجائب والغرائب أنه　　جبرت قلوب المسلمين لكسره

ووافق أن النيل زاد بعد فتح السد بيومين عشر أصابع في دفعة واحدة، ثم في اليوم الثالث من فتح السد زاد الله في النيل المبارك إحدى عشرة أصبعًا في دفعة واحدة، ثم في اليوم الخامس من فتح السد زاد سبع أصابع فزاد ست عشرة أصبعًا من ثماني عشرة ذراعًا وذلك في أواخر مسري بعد الوفاء بخمسة أيام، فعد ذلك من النوادر، وفي رجب كان مستهل الشهر يوم الثلاثاء، فجلس السلطان في الميدان، وطلع إليه الخليفة والقضاة الأربعة يهنونه بالشهر.

وقفة عند المؤرخ ابن إياس الحنفي:

يعتبر ما كتبه ابن إياس هو المرجع الذي يعتمد عليه الكثيرون للتعرف على العصر المملوكي، ولذلك سنستعرض معًا وصف أسلوبه في الكتابة حتى يتضح لنا الكثير عنه وعن عصره، فيقول الأستاذ محمد عبد الله عنان عن ابن إياس ما يلي: "وفي هذا القسم من روايته، أعني تدوين حوادث عصره، وهو يشمل زهاء نصف قرن، من أواخر القرن التاسع إلى سنة ٩٢٨هـ، يبدي ابن إياس نوعًا من الطرافة والبراعة، ويبدي بالأخص دقة في الملاحظة، ومقدرة لا بأس بها في تحليل الأنفس والعواطف، وقد يرجع ذلك من بعض الوجوه إلى سير الحوادث نفسها وإلى المفاجآت والوقائع الغريبة التي قدر للمؤرخ أن يشهدها في خاتمة حياته، فهي التي تغذيه خلال روايته بما يلاحظ وما يعلق، ونستطيع بالأخص أن نستخرج من رواية ابن إياس خلال المجتمع المصري في هذا العصر، وأن نتعرف هذا المجتمع المستهتر الطروب في بعض أثوابه الحقيقية، وأن نقرأ في سلوكه وتصرفاته كثيرًا من عواطفه وميوله وبوادر نفسه، وأن نقف على صور شائقة من عاداته وأحواله الاجتماعية، وهذا ما تعرضه رواية الحوادث ذاتها، ولكن لابن إياس فضلاً في ذلك، هو أنه يعني في كثير من الأحيان بتدوين بعض أحوال الحياة الخاصة، وتتبع آثار الحوادث في نفس الشعب وطبقاته الاجتماعية المختلفة، فنرى في روايته، طبقة الأمراء والأرستقراطية تتحكم في سائر الطبقات اجتماعيًا واقتصاديًا،

ولا تبحث إلا عن تحقيق أهوائها ورفاهيتها، عاش الناس أم هلكوا، ونشعر بوحي القضاة وغيرهم من رجال الدين واضحًا في سياسة السلاطين، كما نراهم سند السلاطين في إباحة المصادرة ونهب الأرزاق والأموال، وإصدار ما يحقق أهواءهم من الفتاوى والأحكام، ونرى الطبقة المتوسطة منكمشة لا تكاد تأخذ بقسط في مجرى الحوادث، أما الطبقة الدنيا أو العامة فنراها صاخبة فائرة، تظهر في طليعة كل اضطراب، ولكنها كعادتها تهدأ وتختفي أمام القوة، ويتتبع ابن إياس حركات العامة بصفة خاصة، فيصف سلوكهم ونزعاتهم وعواطفهم من غضب ورضى ومرح واكتئاب، في نبذ ممتعة كثيرًا ما تثير الابتسام، أما نظم السياسة والحكم والتشريع والإدارة فيعرضها ابن إياس في سياق روايته خير عرض، فيشرح لنا كيف كان يلي السلطان العرش ويباشر الحكم بنفسه أو على يد خاصته وأمرائه، وكان نظام البلاط والحكومة يومئذ من أغرب النظم الملوكية التي عرفت، يمتزج فيه التشريع والتنفيذ والقضاء، وسلطات الحرب والمالية في صعيد واحد"، ونرى مما يذكر إلى أي حد كانت دولة المماليك الشراكسة تمعن في المركزية والاستئثار بالسلطات، كذلك يصف التقلبات الاقتصادية من غلاء ورخاء، وعلى الجملة فإنه يصور لنا في سياق روايته مجتمع عصره سواء في الحياة العامة أو الخاصة أو في الخلال والعادات، والميول والأهواء تصويرًا قويًا شائقًا، وكانت حوادث الفتح العثماني آخر ما دوّن قلم ابن إياس، فهو يصل في روايته حتى خاتمة سنة ٩٢٨هـ - ١٥٢٢م، ونحن نعرف أن المؤرخ توفي بعدئذ بقليل سنة ٩٣٠هـ.

فهو يترك لنا عن هذه الحوادث الشهيرة سجلا يوميًا مسهبًا يستند إلى تحقيق المعاصرة والمشاهدة، وهو لا يمهد فيه إلى الحوادث، ولا يعني بربطها بل يدونها مرسلة كما وقعت ويحصي آثارها إحصاء من رأى وسمع، وكل ما هنالك أن ابن إياس يطلق العنان لشعوره وعواطفه، فنراه يحمل على السفاكين والظلمة في عبارات شديدة وأحيانًا مؤثرة، ويفيض في تفاصيل الواقعة الهائلة التي نشبت بين الغزاة وبين الجيش المصري في مرج دابق سنة ١٥١٦م، وما أوقعه الغزاة بعسكر مصر من سفك ونهب، ويصف صدى النكبة في القاهرة وكيف قام "نعي السلطان في ذلك اليوم ونعي الأمراء والأعيان الذين قتلوا، وصار في كل حارة وزقاق وشارع في القاهرة صراخ وبكاء، ورجت القاهرة وضجت الناس واضطربت الأحوال وكثر القيل والقال" ثم يقف المؤرخ قليلاً ليصف السلطان الغوري وخلاله ويعدد مثالبه ومآثره وينظم في ذلك قوله:

طالعت تاريخ الملوك فلم أرى   فيما سمعت حوادثًا مما جرى

لا زالت الأيام يبدو فعلها   بعجائب وغرائب بين الورى

لكن هذه وقعة ما مثلها   سبقت لسلطان ولا متأمّرا

والأشرف الغوري كان مليكنا   لكنه قد جار فينا وافترى

أعماله ردت عليه بما جنى   والدهر جازاه بأمر قدرا[1]

---

١ من كتاب مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية تأليف محمد عبد الله عنان ١٨٩٦-١٩٨٦ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة ١٩٩٨ – مقتطفات من صفحة ٢١٩ وما بعدها.

وبعد أن استعرضنا بعض تقاليد وعادات سلاطين المماليك سوف نستعرض أهم الأحداث التي وقعت في عصر المماليك اعتبارًا من الفصل القادم إن شاء الله.

ملخص عام لعصر المماليك:

تولى سلاطين المماليك حكم مصر لمدة حوالى ٢٦٧ سنة (وقد انقسمت فترة حكم المماليك لمصر إلى مماليك بحرية استمرت من ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م إلى ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م ثم تلتها المماليك البرجية أو الشركسية وهم سكان أبراج القلعة، والتي انتهت بالفتح العثماني لمصر على يد السلطان سليم الأول في ٩٣٢ هـ / ١٥١٧ م)[١]، (وتولى سلطنة مصر ٢٧ ممن المماليك البحرية و ٢٨ من المماليك البرجية)[٢] وبالتالي يكون مجموع ملوك وسلاطين المماليك ٥٥ سلطانًا مملوكيًا.



١ موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلى اليوم (د. ناصر الأنصاري) صفحة ٩٣

٢ موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلى اليوم (د. ناصر الأنصاري) صفحة ٩٤

أهم الأحداث في عصر المماليك البحرية

كيف استعدت دولة المماليك البحرية لمواجهة التتار:

بعد انتهاء عصر الدولة الأيوبية وفي بداية عصر المماليك البحرية في مصر وتحديدًا في عهد السلطان الصغير نور الدين علي ابن السلطان عز الدين أيبك، هاجم هولاكو العراق وقتل الخليفة المستعصم بالله وخرب بغداد تخريبًا شديدًا واقترب خطر المغول من مصر، ويقول السيوطي عن الخليفة العباسي المستعصم قتيل التتار: "كان متدينًا متمسكًا بالسنة كأبيه وجده، ولكنه لم يكن مثلهما في التيقظ والحزم وعلو الهمة، ثم ركن المستعصم إلى وزيره مؤيد الدين العلقمي الرافضي[1] فأهلك الحرث والنسل ولعب بالخليفة كيف أراد وباطن التتار[2] وناصحهم وأطمعهم في المجيء إلى العراق وأخذ بغداد، وصار إذا جاء خبر منهم كتمه على الخليفة ويطالع بأخبار الخليفة التتار إلى أن حصل ما حصل"[3]، ووصل التتار إلى بغداد "وبذل السيف في بغداد واستمر القتال فيها نحو أربعين يومًا، ولم يسلم إلا من اختفى في بئر أو قناة، وقتل الخليفة رفسًا،

---

١ كان للمستعصم وزير اسمه مؤيد الدين العلقمي وهو شيعي رافضي، وكان يحاول هدم الخلافة السنية وإقامة خلافة شيعية.

٢ باطن التتار أي اتفق معهم على معاونتهم ضد الخليفة سرًا.

٣ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٦٣

قال الذهبي: ما أظنه دفن، وقتل معه جماعة من أولاده وأعمامه وأسر بعضهم، وكانت بليّة لم يصب الإسلام بمثلها، ولم يتم للوزير ما أراد، وذاق من التتار الذل والهوان ولم تطل أيامه بعد ذلك، وعملت الشعراء قصائد في مراثي بغداد وأهلها"[١]:

بادت وأهلوها معًا فبيوتهم ببقاء مولانا الوزير خراب

وقال بعضهم:

يا عصبة الإسلام نوحي واندبي حـزنًا على ما تم للمستعصم
دست الوزارة[٢] كان قبل زمانه لابن الفرات فصار لابن العلقمي

وعندما اقترب الخطر من مصر تم تولية قطز السلطنة وقال: "إني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتار ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم أقيموا في السلطنة من شئتم".[٣]

ويقول السيوطي: "وقدم الصاحب كمال الدين بن العديم إليهم رسولاً يطلب النجدة على التتار، فجمع قطز الأمراء والأعيان،

١ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٦٨
٢ دست الوزارة = منصب الوزارة.
٣ تاريخ مصر الإسلامية (د. جمال الدين الشيال) ج٢ صفحة ١٢٢

فحضر الشيخ عز الدين ابن عبد السلام[1] وكان المشار إليه في الكلام، فقال الشيخ عز الدين: "إذا طرق العدو البلاد وجب على العالم كلهم قتالهم، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به على جهازهم، بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء وأن تبيعوا ما لكم من الحوائص والآلات ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه وتتساووا في ذلك أنتم والعامة، وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا"[2] وتم جمع الأموال استعدادًا لقتال العدو، والذي تم بعد ذلك في معركة عين جالوت الشهيرة.

١ كان العزّ بن عبد السلام جليلاً مهابًا حسن الصورة، منبسط الأسارير، متواضعًا في مظهره وملبسه، وكان لا يتأنّق ولا يتكلّف الحشمة ولا يستألف الوقار استئلافًا، ولد في دمشق سنة ١١٨١ م وتوفي في مصر سنة ١٢٦٢ م، حضر إلى مصر في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب حيث ولاه القضاء والخطابة، وقد أفتى بأن الأمراء المماليك عبيد ولا يصح لهم ما يصح للأحرار، وطلب من الملك الصالح أن يتم عقد مجلس وينادي عليهم بالبيع لبيت مال المسلمين، وقد تم معارضة هذا في البداية بشدة من الأمراء ومن الملك نفسه، ولكنه تم بالفعل بضغط من العز بن عبد السلام عندما قرر أن يغادر مصر، وكاد أن يغادرها معه كل أهل مصر، فنزل الملك على حكمه وتم بيع الأمراء، ولذلك يقال عنه إنه بائع الملوك، حيث تولى المماليك بعد ذلك حكم مصر.

٢ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٧٠

معركة عين جالوت:

أرسل هولاكو رسلاً من عنده إلى مصر يحملون رسالة تحذير وتهديد: (فيا أيها الباقون أنتم بمن مضى لاحقون، يا أيها الغافلون أنتم إليهم تساقون، ونحن جيوش الهلكة لا جيوش الملكة، مقصودنا الانتقام وملكنا لا يرام ونزيلنا لا يضام، وعدلنا في ملكنا قد اشتهر، ومن سيوفنا أين المفر؟ دمرنا البلاد وأيتمنا الأولاد وأهلكنا العباد وأذقناهم العذاب، وجعلنا عظيمهم صغيرًا وأميرهم أسيرًا، تحسبون أنكم منا ناجون أو متخلصون)،[1] وكان قطز على علم تام أنه لن يكون هناك أي فرق بين الاستسلام أو عدم الاستسلام، فهم على أي حال سوف يقتحمون مصر ويدمرونها كما دمروا غيرها وسيقتلون الناس بلا رحمة حتى في حالة الاستسلام، وبالتالي كان رد قطز بلا تردد هو قطع رؤوس رسل هولاكو (وعلق رؤوسهم على أبواب القاهرة وأخذ يحشد قواه ويستعد لملاقاة المغول)،[2] (وبدأ النضال العنيف بين عنصرين من أخطر وأقوى العناصر المحاربة، وبين فنين من فنون الحرب الممتازة في العصور الوسطى، وقد تأرجح النصر مرات بين الفريقين أثناء المعركة)،[3] (وفي أول المعركة هزم المماليك وتفرقوا ولكن قطز ثبت في مكانه وألقى بخوذته إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته "وا إسلاماه" وحمل بنفسه على العدو،

---

١ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٧٠

٢ تاريخ مصر الإسلامية (د. جمال الدين الشيال) ج٢ صفحة ١٢٢

٣ تاريخ مصر الإسلامية (د. جمال الدين الشيال) ج٢ صفحة ١٢٢، ١٢٣

فالتف المماليك حوله ثانيةً وانتصروا على عدوهم، غير أن التتار لم يلبثوا أن ضموا صفوفهم وتجمعوا وتقدموا وأوشكوا أن ينتصروا على المماليك ثانية، فتقدم قطز وصرخ صرخته الأولى ثلاث مرات "وا إسلاماه، يا الله انصر عبدك قطز على التتار"، فأثارت هذه الصرخة وهذا الدعاء حمية المماليك وحملوا على التتار حتى هزموهم هزيمة شنعاء، فلما تم النصر نزل قطز عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها وصلى ركعتين شكرًا لله).[1]

(ويعترف المؤرخون الأوروبيون عند التأريخ لهذه المعركة أنها لم تنقذ العالم الإسلامي وحده من خطر المغول المخرب المدمر، بل لقد أنقذت العالم المسيحي كذلك؛ لأنه لم يكن في أوروبا المسيحية وقتذاك ملك قوي يستطيع مقاومة المغول لو أنهم انتصروا على المماليك وتقدموا في اتجاههم الطبيعي نحو أوروبا)،[2] فالتتار منذ خروجهم من موطنهم الأصلي لم يذوقوا طعم الهزيمة أبدًا، وبالمناسبة الموطن الأصلي لهم هو شرق آسيا عند أطراف الصين، وكانوا لا يحتاجون مدهم هم ودوابهم بأي إمدادات من أي نوع، فهم يأكلون الخيول وأي شيء في أي وقت ويشكلون خطرًا رهيبًا على العالم المتحضر في ذلك الوقت.

١ تاريخ مصر الإسلامية (د. جمال الدين الشيال) ج٢ صفحة ١٢٣

٢ تاريخ مصر الإسلامية (د. جمال الدين الشيال) ج٢ صفحة ١٢٥، ١٢٦

سيرة الظاهر بيبرس بين خطر المغول وخطر الصليبيين:

كان بيبرس على علم أن المغول سوف ينتقمون مما حدث لهم فأعد العدة لقتالهم، وكان في نفس الوقت يواجه خطرًا صليبيًا من نوع آخر، وظل بيبرس يقاوم كلاً منهم بكافة الوسائل (وكان بيبرس في دمشق وقد فرغ من أمر الصليبيين وعلم أن التتار قد أعادوا الهجوم على البيرة، فتقدم نحو الشمال يقود الجيش بنفسه، ثم حمل بعض السفن المفككة إلى نهر الفرات، حيث أعاد تركيبها وعبر بجنوده إلى الشاطئ الشرقي حيث انتصر على التتار الذين تقهقروا سريعًا واحتل بيبرس البيرة وحصنها وأقام بها حامية للدفاع عنها، ومنذ ذلك الحين اتجه النضال بين بيبرس وبين التتار إلى ميدان آخر، إلى آسيا الصغرى)١، وكانت المعركة الكبرى لبيبرس ضد جيوش المغول وحلفائهم من سلاجقة الروم في مكان اسمه "الأبلستين" في سنة ١٢٧٧ م (وفيها انتصر بيبرس انتصارًا حاسمًا عظيمًا وانتقل بعد هذا النصر إلى قيسارية عاصمة الدولة، ونزل بدار السلطنة وجلس على عرش سلاجقة الروم، ولهذه الوقعة نتيجة مهمة أخرى، فقد حطمت دولة سلاجقة الروم وأتاحت الفرصة لقيام دويلات تركية أخرى في أنحاء آسيا الصغرى سيكون لبعضها شأن عظيم فيما بعد، من هذه الدويلات،

---

١ تاريخ مصر الإسلامية (د. جمال الدين الشيال) صفحة ١٣٨

دولة بني قرمان ودولة بني عثمان)[1] وبهذا كسر بيبرس شوكة التتار (ولكن بيبرس لم يقدم على مهاجمة الصليبيين إلا بعد أن اختط لنفسه خطة واضحة تدل على ما كان يمتاز به من ذكاء خارق ومواهب سياسية فذة، كانت هذه الخطة تتلخص في عقد سلسلة من التحالفات مع كل القوى الإسلامية والمسيحية المحيطة به وبالصليبيين لتحقيق هدفين: أولهما أن يمنع هذه القوى أن ترسل أو تسمح بمرور أي مدد إلى الصليبيين، ولإيقاف جيوش المغول إن فكرت في التقدم لمساعدة الصليبيين)[2] واستمر بيبرس في حروبه ضد الصليبيين لمدة عشر سنوات كاملة،[3] وكان يتزامن أحيانًا القتال مع الصليبيين مع القتال على جبهات أخرى ضد المغول وغيرهم (وقد لقي بيبرس في حملاته ضد الصليبيين مشاقَ ومتاعب جمة، غير أنه كان المنتصر دائمًا، فلم ينهزم قط في معركة من معاركهم ولم يمتنع عليه حصن من حصونهم)،[4] وكانت أهم إنجازات بيبرس في قتاله ضد الصليبيين تحرير إمارة صليبية كبرى وهي إمارة أنطاكية، (وقد كان لانتصارات بيبرس المتتالية أثرها القوي في نفوس الشعب العربي في مصر والشام، فأعجب ببطولة بيبرس وأكبره وراح يتغنى بشجاعته وانتصاراته،

١ تاريخ مصر الإسلامية (د. جمال الدين الشيال) صفحة ١٣٨، ١٣٩
٢ تاريخ مصر الإسلامية (د. جمال الدين الشيال) صفحة ١٤٩
٣ تاريخ مصر الإسلامية (د. جمال الدين الشيال) صفحة ١٥٥
٤ تاريخ مصر الإسلامية (د. جمال الدين الشيال) صفحة ١٥٦

وألف أديب مصري مجهول "سيرة الظاهر بيبرس"، فكانت ملحمة للبطولة، وظلت قرونًا يتغنى بها الشعراء والقصاص في المقاهي ومجالس السمر ليثيروا النخوة والعزة والبطولة في نفوس الشعب).[1]

السلطان الأشرف خليل ابن قلاوون وجلاء آخر جندي صليبي من الشام:

استطاع الصليبيون تكوين أربع إمارات صليبية في الشام؛ وهي إمارة الرها وإمارة بيت المقدس وإمارة أنطاكية والإمارة الرابعة طرابلس، ثم بدأت معارك التحرير، ويقول د. جمال الدين الشيال: (تهاوت الإمارات الصليبية الثلاث من قبل على أيدي أبطال الجهاد المسلمين، فسقطت إمارة الرها على يد عماد الدين زنكي، وسقطت إمارة بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي، وسقطت إمارة أنطاكية على يد الظاهر بيبرس، ولم تعد إلا الإمارة الرابعة وهي إمارة طرابلس التي كان يحكمها أمراء النورمان، وبقيت بعض فلول الصليبيين في مدن أخرى متناثرة وهي بقايا مملكة بيت المقدس، وكان مقرها مدينة عكا، وحصن المرقب ويحكمه فرسان الاسبتارية، وطرسوس ويحكمها فرسان الداوية)[2]،

١ تاريخ مصر الإسلامية (د. جمال الدين الشيال) صفحة ١٥٨
٢ تاريخ مصر الإسلامية (د. جمال الدين الشيال) صفحة ١٦٧

وقد استطاع السلطان قلاوون ومن بعده ابنه الأشرف خليل هزيمة الصليبيين وطردهم من الشام بالكامل لتنتهي بذلك هذه الصفحة من تاريخهم في الشام، وقد استطاع قلاوون تحرير طرابلس (وخرج على رأس جيش ضخم حتى وصل إلى طرابلس فحاصرها تسعة وثلاثين يومًا، وبعد قتال عنيف سقطت طرابلس واستولى عليها قلاوون في أبريل سنة ١٢٨٩م)[١]، وكانت عكا آخر المعاقل الصليبية في الشام، وأخذ قلاوون يعد العدة لتحريرها، ولكنه مات قبل أن يتم ذلك فتولى الملك الأشرف خليل بن قلاوون المسئولية ودعا للجهاد ضد الصليبيين في جميع البلاد الإسلامية (وفي القاهرة أقام السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون احتفالاً دينيًا في القبة المنصورية دعا إليه القضاة والعلماء والأعيان وحضرته طوائف الشعب، وضج المجتمعون بالدعاء إلى الله أن يكتب النصر للسلطان ثم خرج خليل بجيشه من القاهرة واجتمعت هذه الجحافل[٢] من كل مكان عند أبواب عكا في ربيع سنة ١٢٩١ م، واشتد الحصار ودام ثلاثة وأربعين يومًا، وسقطت عكا في أيدي العرب بعد أن لبثت في أيدي الصليبيين مائة عام كاملة، وسرعان ما تساقطت المدن الصليبية القليلة الباقية كما تتساقط أوراق الشجر،

---

١ تاريخ مصر الإسلامية (د. جمال الدين الشيال) صفحة ١٦٨

٢ خرج كل أمير من أمراء الشام بقوة كبيرة ليقابل جيش السلطان عند عكا، وجدير بالذكر أن هذه المعركة اشترك فيها المجاهدون المسلمون وليس المماليك فقط.

وهكذا اختتمت حلقة من حلقات الاستعمار الأوروبي وطرد من عكا آخر جندي صليبي بعد نضال طويل وكفاح مستمر مرير بدأه عماد الدين زنكي وشارك فيه جماعة من الأبطال المغاوير: نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وبيبرس وقلاوون، ثم كان التطهير على يد الأشرف خليل بن قلاوون).[١]



١ تاريخ مصر الإسلامية (د. جمال الدين الشيال) صفحة ١٦٩

أهم الأحداث في عصر المماليك البرجية

جزيرة قبرص بين الملك الأشرف شعبان والملك الأشرف برسباي:

تعرضت مصر في عهد الملك الأشرف شعبان لحملة من ملك قبرص بطرس الأول لوزنيان، حيث حضر إلى الإسكندرية بأسطول ضخم في ٩ أكتوبر سنة ١٣٦٥ م، وكان والي الإسكندرية في ذلك الوقت يؤدي فريضة الحج والنائب الموجود مكانه ليس على نفس الوزن من الخبرة والدراية، فلم يحسن الدفاع عن المدينة، واستطاع بطرس وجيشه البقاء بها ثلاثة أيام كاملة قام خلالها بالتخريب والنهب والقتل، وعندما شعر بطلائع جيوش المماليك القادمة من القاهرة فر ومن معه من الإسكندرية (وصحبوا معهم خمسة آلاف أسير وأسيرة من أهالي الإسكندرية منهم كما يقول النويري المؤرخ السكندري "المسلم والمسلمة واليهودي واليهودية والنصراني والنصرانية")[1] وعندما هرب بطرس من الإسكندرية هرب مسرعًا مرعوبًا حتى أنه ألقى بعض المنهوبات التي أثقلت سفنه خوفًا عليها من الغرق (وصدق قول النويري حيث وصفه بأنه "جاء المدينة لصًا وخرج منها لصًا").[2]

---

١ تاريخ مصر الإسلامية (د. جمال الدين الشيال) صفحة ١٩٨

٢ تاريخ مصر الإسلامية (د. جمال الدين الشيال) صفحة ١٩٨

وبعد هذا الحدث بحوالي ستين عامًا وفي عهد السلطان الأشرف برسباي الذي أرسل ثلاث حملات بحرية إلى جزيرة قبرص (الأولى سنة ٨٢٧ هـ - ١٤٢٤ م، والثانية سنة ٨٢٨ هـ - ١٤٢٥ م، والثالثة سنة ٨٢٩ هـ - ١٤٢٦ م)،[١] وفي الحملة الثالثة استطاع المماليك فتح قبرص والسيطرة عليها بالكامل، بل وتم أسر ملك قبرص الذي كان في ذلك الوقت الملك جانوس الذي تم إطلاق سراحه في مقابل أن تصبح الجزيرة تابعة لمصر وتدفع الجزية (وهكذا انتقمت مصر لنفسها من جزيرة قبرص ونجحت في القضاء على نشاطها في مياه البحر المتوسط، وظلت قبرص منذ ذلك الوقت تابعة للقاهرة، وتدفع جزية سنوية حتى نهاية حكم المماليك على يد العثمانيين سنة ١٥١٧ م).[٢]

محاولات فتح رودس:

بعد أن سقطت جزيرة قبرص تحول بقايا الصليبيين إلى جزيرة رودس ليتخذوها قاعدة لهم محصنة للهجوم على بلاد المسلمين وسفنهم والقيام بأعمال القرصنة البحرية (ومما يؤكد ذلك أنه في عهد السلطان جقمق "٨٤٢-٨٥٧هـ / ١٤٣٨-١٤٥٣م" دخلت فرع رشيد في ربيع الأول سنة ٨٤٣ هـ / ١٤٣٩ م أربع سفن للصليبيين حتى قاربت مدينة رشيد وأخذت أبقارًا وغيرها ثم عادت أدراجها،

١ مصر في العصور الوسطى (د. محمود الحويري) صفحة ٢٦٧

٢ مصر في العصور الوسطى (د. محمود الحويري) صفحة ٢٦٩

وكان من المستحيل على دولة المماليك الجراكسة أن تقف مكتوفة الأيدي أمام القراصنة الذين اتخذوا من سواحل جزيرة رودس أوكارًا يخرجون منها للإغارة على شواطئ مصر، ولذلك أراد السلطان جقمق إخضاع جزيرة رودس ليبسط سيادته على مياه شرق البحر المتوسط)،[1] وأرسل جقمق ثلاث حملات لغزو رودس، وكانت المقاومة شرسة وعنيدة ولكنها انتهت بتوقيع اتفاقية صلح ليتوقف القتال مقابل توقف أعمال القرصنة.

سلطان مصر الأشرف إينال يستقبل رسالة من السلطان العثماني محمد الفاتح:

هو السلطان الأشرف أبو النصر سيف الدين إينال العلائي الظاهري، وهو السلطان الثاني عشر من دولة المماليك البرجية الشراكسة في مصر، بويع بالسلطنة في يوم الاثنين ٨ ربيع أول عام ٨٥٧ هـ الموافق ١٩ مارس ١٤٥٣م، وكانت فترة حكمه لمصر والدولة المملوكية حوالي ٨ سنوات، ويقال إن إينال كلمة تركية من مقطعين هما: «إي» ومعناها القمر، و«نال» ومعناها شعاع، أي أن اسمه يعني "شعاع القمر"، وكان قد تولّى عدة مناصب قبل السلطنة منها رأس نوبة ثاني ونائب غزة ونائب الرها في زمن السلطان برسباي عام ٨٣٦ هـ، ثم حضر إلى القاهرة وأصبح مقدم ألف، ثم أصبح نائب صفد عام ٨٤٠ هـ.

---

١ مصر في العصور الوسطى (د. محمود الحويري) صفحة ٢٧٠

ثم عينه السلطان جقمق أتابكًا عام ٨٤٩ هـ، وكان السلطان إينال ملكًا هينا لينًا قليل الأذى لم يسفك دمًا قط بغير وجه شرعي، ينقاد للشريعة الغراء ويحب العلماء ويُعتبر من خيار ملوك الشراكسة، وكانت الدولة العثمانية في ذلك الوقت تربطها علاقات طيبة مع دولة المماليك، وظلت هذه الدولة القوية تحاول فتح القسطنطينية حتى تم لها ذلك في عهد السلطان العثماني محمد الثاني الذي أطلقوا عليه بعد ذلك اسم محمد الفاتح، وكان ذلك في عهد السلطان المملوكي الأشرف إينال الذي وصلته رسالة من السلطان العثماني محمد الفاتح يخبره فيها بفتح القسطنطينية، وهذا بعض ما جاء في رسالة محمد الفاتح إلى الأشرف إينال: (إن من أحسن سنن أسلافنا رحمهم الله تعالى أنهم مجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم، ونحن على تلك السنة قائمون وعلى تلك الأمنية دائمون، ممتثلين بقوله تعالى {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ} (٢٩) سورة التوبة، ومستمسكين بقوله عليه الصلاة والسلام "من أغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار"، فهممنا في هذا العام غممه الله بالبركة والإنعام معتصمين بحبل الله ذي الجلال والإكرام، ومتمسكين بفضل الملك العلام إلى أداء فرض الغزو في الإسلام مؤتمرين بأمره تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ (١٢٣) سورة التوبة، وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجورًا وكفرًا، التي بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهي بكفرها فخرًا،

فمتى طلع الصبح الصادق من يوم الثلاثاء يوم العشرين من جمادى الأولى هجمنا مثل النجوم رجومًا لجنود الشياطين سخرها الحكم الصديقي ببركة العدل الفاروقي بالضرب الحيدري لآل عثمان من الله بالفتح قبل أن تظهر الشمس من مشرقها ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ (٤٥، ٤٦) سورة القمر)[١] وبالطبع فرح المسلمون في مصر وفي جميع أنحاء الأمة الإسلامية فرحًا عظيمًا بهذا الفتح، كما سعد الخليفة العباسي بذلك سعادة بالغة، فكم ناصبت الدولة البيزنطية العداء للأمة الإسلامية وأذاقتها من شرورها.

وقام السلطان إينال بالرد على رسالة السلطان محمد الفاتح برسالة يهنئه فيها بالفتح العظيم، وجاء فيها بعض أبيات من الشعر الذي نظمه الشعراء في مصر بهذه المناسبة كان منها:

كـذا فليكن في الله جـل العزايم وإلا فلا تجفوا الجفون الصوارم

كتائبك البحر الخضم جيادها إذا ما تهـدت موجه المتلاطم

يا ناصر الإسلام يا من بغزوه على الكفر أيام الزمان المواسم[٢]

وكان فتح القسطنطينية في ٢٠ جمادى الأول سنة ٨٥٧ هجريًا (٢٩ مايو ١٤٥٣ ميلاديًا) ومنذ هذا التاريخ لم يعد هناك وجود لما يسمى بالدولة البيزنطية.[٣]

١ الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (د. علي محمد محمد الصلابي) صفحة ١٤٩، ١٥٠

٢ الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (د. علي محمد محمد الصلابي) صفحة ١٥١

٣ مصر في العصور الوسطى (د. محمود الحويري) صفحة ٢٧٤

كيف حاولت مصر إنقاذ الأندلس في العصر المملوكي

قلما نجد في صحف مصر الإسلامية ما يثير من التأثر والشجن، قدر ما تثيره هذه المحاولة النبيلة التي بذلتها مصر لتنقذ دولة الإسلام في الأندلس، ولقد كانت أيضًا آخر محاولة بذلتها مصر المستقلة في ميدان الدبلوماسية الإسلامية، في سنة ١٤٨٩ كانت جيوش أسبانيا النصرانية – أو جيوش قشتالة وأراجون – تتقدم في قلب مملكة غرناطة آخر معقل لأسبانيا المسلمة، وكانت دولة الإسلام في الأندلس قد أخذت منذ أوائل القرن السابع الهجري تنحدر بسرعة إلى هاوية الانحلال والفناء، ثم حل الصراع الأخير، واتحدت قشتالة وأراجون على يدي فرناندو وإيزابيلا، واعتزمت أسبانيا النصرانية أن تقوم بضربتها الحاسمة للإسلام في الأندلس، فتقدمت الجيوش المتحدة على مملكة غرناطة، وكانت أحوال غرناطة يومئذ تنذر بالويل، وكان الخلاف الداخلي قد دب إليها ومزقتها المنافسات والمعارك الأهلية، وشطرتها إلى شطرين يتربص كل منهما بالآخر، أحدهما غرناطة وبعض أعمالها ويحكمها أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل، وكان فرناندو وإيزابيلا قد شهرا الحرب على الإسلام قبل ذلك بأعوام، وكانت أنباء الأندلس قد ذاعت يومئذ في العالم الإسلامي، واهتز لمصابها أمراء الإسلام قاطبة، وكان أمراء الأندلس وزعماؤها يتجهون إزاء الخطر الداهم بأبصارهم إلى دول الإسلام في إفريقية ومصر وتركيا لتسعى إلى غوثهم،

وكانت سفاراتهم ورسائلهم تترى منذ أعوام على فاس والقاهرة وقسطنطينية، وكان سلطان مصر يومئذ الملك الأشرف قايتباي المحمودي الظاهري، ولم تكن أحوال مصر على ما يرام يومئذ، فقد كان يسودها الانحلال الداخلي، وكانت فوق ذلك تخشى الخطر يهددها من ناحية الترك، ولكن مصر لم تنس مهمتها التاريخية في توجيه الدبلوماسية الإسلامية كلما دعيت إلى أدائها، ووصلت سفارة الأندلس إلى مصر في أواخر سنة ٨٩٢هـ (نوفمبر سنة١٤٨٧م)، ويصف ابن إياس هذه السفارة فيما يأتي:

وفي ذي القعدة سنة ٨٩٢هـ جاء قاصد من عند ملك الغرب صاحب الأندلس، وعلى يده مكاتبة من مرسله تتضمن أن السلطان يرسل له تجريدة تعينه على قتال الفرنج، فإنهم أشرفوا على أخذ غرناطة وهو في المحاصرة معهم، ومهما يكن من موقف مصر وتركيا يومئذ إزاء حوادث الأندلس فإن مصر هي التي انفردت بتلبية نداء الأندلس، والسعي إلى إنقاذها، ولم تكن أحوال مصر يومئذ مما يسمح لها بإرسال جيش أو غيره من المساعدات المادية، إلى ميدان حرب ناء كالأندلس، ذلك أن سلطان مصر الأشرف أجاب على سفارة الأندلس بتوجيه سفارة مصرية إلى البابا وملوك النصرانية، ولكنه لم يعهد بها إلى سفراء مسلمين، وإنما عهد بها سفراء من رعاياه النصارى، واختار لأدائها راهبين من جماعة القديس فرنسيس أحدهما القس أنطونيو ميلان، وعهد إليهما بكتب إلى البابا وإلى ملك نابولي،

وإلى فرناندو وإيزابيلا ملكي قشتالة وأراجون، وفي هذه الكتب يعاتب سلطان مصر ملوك النصارى، على ما ينزل بأبناء دينه المسلمين في مملكة غرناطة، وعلى توالي الاعتداء عليهم، وغزو أراضيهم وسفك دمائهم، ونهب أملاكهم، في حين أن رعاياه النصارى في مصر وفي بيت المقدس، وهم ملايين، يتمتعون بجميع الحريات والحمايات، آمنين على أنفسهم وعقائدهم وأملاكهم، ولهذا فهو يطلب إلى ملكي قشتالة وأراجون، الكف عن هذا الاعتداء، والرحيل عن أراضي المسلمين، وعدم التعرض إليهم، ورد ما أخذ من أراضيهم، ويطلب إلى البابا وملك نابولي أن يتدخلا لدى ملكي قشتالة وأراجون، لردهما عما يدبرانه من المشاريع لإيذاء المسلمين والبطش بهم، هذا وإلا فإن سلطان مصر يضطر إزاء هذا العدوان، أن يتبع نحو رعاياه النصارى سياسة التنكيل والقصاص، ويبطش بكبار الأحبار في بيت المقدس، ويمنع دخول النصارى كافة إلى الأراضي المقدسة).[1]

١ نقلاً عن كتاب مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية تأليف محمد عبد الله عنان ١٨٩٦-١٩٨٦ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة ١٩٩٨ – مقتطفات من صفحة ٢٠٢ وما بعدها.

السلطان الأشرف قايتباي وبداية الاضطرابات بين الدولة المملوكية والدولة العثمانية:

تولى السلطان الأشرف قايتباي حكم مصر سنة ١٤٦٨ م، وكان من ألمع سلاطين المماليك الذين حكموا مصر، وفي عهده وصل إلى القاهرة الأمير (جم) العثماني أخو السلطان العثماني بايزيد، لخلاف وقع بين الأخوين، فرحب به قايتباي وأحاطه بعناية كبيرة، فكانت هذه الحركة سببًا لإفساد العلاقات بين مصر المملوكية والدولة العثمانية، فلم يغفر السلطان بايزيد للسلطان قايتباي إيواء الأمير جم، ووقعت أول معركة بين الجانبين سنة ١٤٨٤ م، وقد انتصر فيها الأمراء المماليك، وقد وقعت معركة أخرى سنة ١٤٨٦ م حيث التقى جيش مصري ضخم تحت قيادة الأمير يزبك أتابك العسكر المصري مع جيش عثماني في أقصى الشمال، فهزم الجيش العثماني هزيمة ساحقة، حتى قيل إن عدة من قتل من العثمانيين يربو على أربعين ألفًا، وقبض على قائد الجيش العثماني أحمد هرسك واستولى على الأعلام العثمانية، واهتزت القاهرة لهذا النصر الكبير وأقيمت الزينات وسارت المواكب التي استعرضت فيها الأعلام العثمانية، وقد وقعت مواجهة أخرى بين الجانبين سنة ١٤٨٧ م اشترك فيها الأسطول العثماني، وكان النصر أيضًا حليف الجيش المصري، ومن جديد ارتجت القاهرة لهذا النصر الجديد وأقيمت فيها الاحتفالات، واستقر الرأي بعد مفاوضات متواصلة بين السلطان قايتباي المملوكي والسلطان بايزيد العثماني على عقد

صلح بين الملكين على أساس أن يرسل بايزيد مفاتيح القلاع التي استولى عليها إلى مصر إشارة إلى ردها إلى ملكية مصر، على أن يطلق قايتباي من عنده من الأسرى العثمانيين، وتبادل السلطانان الهدايا والمجاملات الودية، وهكذا فتحت صفحة جديدة من الود بين الدولتين سنة ١٤٩٢م، والجدير بالذكر أن العلاقات ساءت بين الدولتين مرة أخرى وبلغت ذروتها في عهد كل من السلطان المملوكي الأشرف قنصوة الغوري والسلطان العثماني سليم الأول.

الصراع المملوكي البرتغالي حول البحر الأحمر

بدأ هذا الصراع منذ وصول البرتغاليين إلى البحار الشرقية، حيث عمل كل طرف على الاستيلاء وأسر سفن تجار الطرف الآخر، بل عمل كل فريق على العبث وإتلاف وإفساد ثروات الفريق الآخر، وعادت هذه الأعمال العدائية من جانب الطرفين بالخسارة الشديدة على موانئ البحر الأحمر وبخاصة موانئ عدن ومخا وجدة كما تذكر المصادر المعاصرة، وكثرت الشائعات بفساد الإفرنج وتعبثهم على التجار، وقد جابوا حول بندر جدة، وقد قامت سياسة البرتغاليين في حقيقة الأمر منذ تلك الفترة على أساس القضاء على كل نفوذ تجاري للتجار العرب في البحار الشرقية، ومن هنا كانت مطاردتهم للسفن العربية وإغراقها والعمل على طرد العرب من المراكز التجارية الهندية والإفريقية منذ وصول فاسكو داجاما إلى هذه البحار، حيث قام أثناء رحلته الثانية سنة ١٥٠٢

بإرسال حملة مكونة من خمس سفن حربية للإقامة الدائمة عند مدخل البحر الأحمر والعمل على مهاجمة السفن العربية ومنعها من مزاولة النشاط التجاري في مياه المحيط الهندي إلا بتصريح من البرتغاليين، وفعلاً تمكن قائد هذه الحملة البرتغالية من القيام ببعض الأعمال العدائية ضد السفن التجارية العربية كما تمكن من أسر بعض البحارة العرب.

وقد ازدادت حدة الحصار البرتغالي شدة حينما وصل إلى المياه الشرقية البوكيرك سنة ١٥٠٦ الذي شدد من فرض الحصار البحري المفروض على البحار العربية ومداخلها، مما أضر ضررًا فادحًا باقتصاد كل من مصر واليمن والبندقية التي كانت تسعى جادة في تلك الآونة إلى مقاومة الخطر البرتغالي عن طريق حث السلطان الغوري على النهوض لمقاومة هذا العدو المشترك، ورغم سوء الظروف الداخلية التي كانت تحيط بالسلطان الغوري فإن خطته كانت قائمة آنذاك على تقوية نفوذه في أقاليم البحر الأحمر وتحصين سواحله، إدراكًا منه لأهمية هذا البحر الاقتصادية والاستراتيجية بالنسبة لأملاكه في مصر والحجاز، ولذا فإنه أرسل في ٦ جمادى الآخرة سنة ٩١١هـ - ٤ نوفمبر سنة ١٥٠٥م حملة بحرية تحت قيادة حسين الكردي من ميناء السويس ووجهتها الهند على أن تعمل في نفس الوقت على تحصين ميناء جدة استعدادًا لمواجهة أي خطر برتغالي في المستقبل لمهاجمة الأماكن المقدسة،

ولذا فإن الحملة زودت بالفنيين اللازمين للقيام بهذه التحصينات، وقد أقام هؤلاء الفنيون فعلاً بعض الاستحكامات في هذا الميناء، ثم اتجهت الحملة إلى موانئ اليمن الواقعة على البحر الأحمر مثل قمر بجيزان وجزيرة كمران، ثم اتجهت إلى مخا فعدن، حيث ذكر الأمير حسين الكردي قائد الحملة لحاكم عدن الطاهري أن الحملة تستهدف الذهاب إلى الهند لمحاربة البرتغاليين، فأمده حاكم عدن بما يشاء من طعام ومؤن، ومع أن الحملة تمكنت حينما وصلت إلى "ديو" من التحالف مع بعض الإمارات الهندية وإحراز انتصارات جزئية على القوى البرتغالية، إلا أن الهزيمة حلت بها في النهاية ولم تحقق الهدف المرجو منها، ومنذ تلك الآونة ازداد اقتراب الخطر البرتغالي إلى مداخل البحر الأحمر.[1]

وصف المؤرخ ابن إياس الحنفي لمعركة مرج دابق:

التي وقعت في ٢٤ أغسطس سنة١٥١٦م في شمال سوريا بين المماليك بقيادة السلطان الأشرف قنصوة الغوري والعثمانيين بقيادة السلطان سليم الأول: (في يوم الخميس رابع عشره ورد على السلطان مطالعة٢ من عند سيباي نائب الشام،

١ من كتاب (فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني) د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم – من سلسلة كتب (تاريخ المصريين) رقم ٣٨ – الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة سنة ١٩٩٠ صفحة ١٢١ وما بعدها.

٢ مطالعة = رسالة مكتوبة.

وقـد بلغـه حركـة سـفر السـلطان مـن مصـر إلى الـبلاد الشـامية، فأرسـل يقـول لـه: يـا مولانـا السـلطان إن الـبلاد الشـامية مغليـة والعليق والتبن ما يوجد والـزرع في الأرض لـم يحصد، ولا ثـم عـدو متحـرك فـلا يتعـب السـلطان سـره ولا يسـافر، وإن كـان ثـم عـدو متحـرك فـنحن لـه كفاية، فلـم يلتفـت السـلطان إلى كلامـه واسـتمر باقيًا على حركة السـفر إلى حلب).[1]

(وفي يـوم الأربعـاء ويـوم الخميس أنفـق السـلطان على المماليك بقيـة النفقة، وفي يوم السـبت ثالث عشـرينه أكمل السـلطان النفقـة على المماليـك قاطبـة مـن قرانصـة وجلبـان، ونـادى لهـم في الحـوش أن السـفر أول الشـهر، فاضـطرب أحـوال المماليك وارتجت القـاهرة وعـز وجـود الخيـل والبغـال، وصـارت المماليـك يهجمـون الطـواحين ويأخـذون منهـا الخيـول والبغـال والأكـاديش، فغلقـت الطـواحين قـاطبة وامتنع الخبز من الأسـواق وكذلك الدقيق، ووقـع القحـط بين الناس وضج العـوام وكثر الدعـاء على السـلطان).[2]

(وفي يوم السـبت سـادس عشـر شـعبان ٩٢٢ هـ أشـيعت هـذه الكاينـة العظيمـة التي طمـت وعمـت وزلزلـت لهـا الأقطـار، فلمـا خـرج السلطان من حلب توجه إلى حيلان فبات بها،

---

١ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ١٩

٢ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ٢٠

فلما أصبح يوم الأربعاء حادي عشرين رجب رحل السلطان من حيلان وتوجه إلى مرج دابق فأقام به إلى يوم الأحد خامس عشرين رجب وهو يوم نحس مستمر، فما يشعر إلا وقد دهمته عساكر سليم شاه بن عثمان، فقيل أول من برز للقتال الأتابكي سودون العجمي وملك الأمراء سيباي نائب الشام والمماليك القرانصة دون المماليك الجلبان، فقاتلوا قتالاً شديدًا هم وجماعة من النواب فهزموا العثمانيين وكسروهم كسرة مهولة وأخذوا منهم سبعة صناجق، فهمّ ابن عثمان بالهروب أو بطلب الأمان وكانت النصرة للمماليك أولاً ويا ليت لو تم ذلك، ثم بلغ المماليك القرانصة أن السلطان قال لمماليكه الجلبان لا تقاتلوا شي وخلوا المماليك القرانصة تقاتل وحدهم، فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال، فبينما هم على ذلك وإذا بالأتابكي سودون العجمي قد قتل في المعركة وقتل ملك الأمراء سيباي[1] بك نائب الشام فانهزم من في الميمنة من المماليك، ثم إن خاير بك نائب حلب انهزم وهرب فكسر الميسرة، ويقال إن خاير بك كان موالسًا على السلطان في الباطن وهو مع ابن عثمان على السلطان، وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد، فكان أول من هرب هو قبل المماليك قاطبة، وكان ذلك خذلانًا من الله تعالى للمماليك حتى نفذ القضاء والقدر.

---

١ كان نائب الشام سيباي بك قائد الميمنة، بينما كان خاير بك نائب حلب هو قائد الميسرة، وقد تم قتل سيباي بك أثناء القتال، وانسحب خاير بك بدون سبب أثناء المعركة، وهناك من أوقع الخلاف بين المماليك القرانصة والمماليك الجلبان في أحرج مواقف المعركة.

وانعقد بين العسكرين غبار حتى صار لا يرى بعضهم بعضًا، وكان نهار غضب من الله تعالى قد انصب على المماليك وغلت أيديهم عن القتال)[1] (وقد أقامت هذه الوقعة من طلوع الشمس إلى بعد الظهر، وانتهى الحال على أمر قدره الله تعالى فقتل في تلك الساعة من العثمانيين ومن المماليك ما لا يحصى عدده)،[2] ومات الغوري في المعركة من شدة القهر بعد أن طلب من المماليك القتال، وقال لهم (هذا وقت المروءة، هذا وقت النجدة، فأخذ يستغيث فلم يسمع له أحد، ويروى أن الغوري عندما رأى جيشه يفر من أمام عينيه وتحقق من الهزيمة أصيب بالشلل، وطلب جرعة من الماء فجاءوا له بها، ولكنه لم يتمالك نفسه وهوى من فوق صهوة فرسه ميتًا وداسته الخيل)،[3] والغريب أنه لم يُعثر له على جثة بعد المعركة، واستمر سليم الأول يزحف بجيشه نحو مصر ويضم إليه كل ما يقابله من بلاد، وعندما تأكدت وفاة السلطان الغوري طلب الأمراء المماليك من الأمير طومان باي أن يتولى السلطنة.

١ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ٣٥، ٣٦
٢ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ٣٨
٣ مصر في العصور الوسطى (د. محمود الحويري) صفحة ٢٨٠

ملك الأمراء خاير بك الذي أصبح خاين بك

كان الأمير خاير بك نائب حلب للسلطان الأشرف قنصوة الغوري، وعندما وقعت معركة مرج دابق في شمال سوريا بين السلطان الغوري والسلطان العثماني سليم الأول، تولى خاير بك قيادة الميسرة في جيش الغوري، ولكنه كان على اتفاق مع السلطان العثماني ضد السلطان الغوري، فانسحب بميسرة الجيش أثناء المعركة بدون مبرر، وكان ذلك من أهم عوامل هزيمة جيش مصر في معركة مرج دابق أمام الجيش العثماني، والذي ترتب عليها بعد ذلك ضم مصر للحكم العثماني، وعن خيانة الأمير خاير بك يقول المؤرخ ابن إياس الحنفي في كتابه (بدائع الزهور في وقائع الدهور): (وممن كان موالسًا على السلطان في الباطن خاير بك نائب حلب، فإنه أول من كسر عسكر السلطان، وانهزم عن ميسرته، وتوجه إلى حماة، ولما ملك ابن عثمان حلب أرسل خلفه، فلما حضر إليه خلع عليه وصار من جملة أمرائه، ولبس زي التراكمة، وقص ذقنه وسماه السلطان العثماني "خاين بك" لكونه خان سلطانه وطاع ابن عثمان، فلما جرى ذلك تسحبت مماليك خاير بك، وتوجهوا إلى مصر، ودخل هو تحت طاعة ابن عثمان).

عندما تم شنق سلطان مصر على باب زويلة

إنه طومان باي الذي أجمع معظم المؤرخين أنه كان سلطانًا عالي الهمة وقليل الأذى للرعية، وقد كان السلطان الغوري قد عينه نائبًا له في مصر قبل أن يتجه إلى لقاء العثمانيين في مرج دابق بشمال سوريا، وعندما تأكدت وفاة الغوري خلال المعركة طلب الأمراء في مصر من طومان باي أن يتولى السلطنة، (ولقد تمنع طومان باي عن قبول السلطنة مدة خمسين يومًا، إلا أنه قبلها بعد ذلك تحت ضغط)[١]، (وحين تولى طومان باي السلطنة كانت البلاد في أقصى درجات التدهور والدولة المملوكية في آخر رمق، نتيجة لعوامل متعددة، إذ قد استشرى الفساد في كيان الدولة المملوكية، وكأنها حتمية النهاية، ولم يعد هناك أي أمل في استنقاذها)[٢] وبالرغم من كل هذه المعوقات حاول طومان باي أن يستعد للحرب الحتمية (بينما رفض أن يأخذ أموال الناس قهرًا أو من أي سبيل حتى لا تحدث في أيامه مظلمة أبدًا)[٣] وكتب ابن إياس (فلما كان يوم الخميس تاسع عشرين ذي الحجة فيه وقعت كاينة عظيمة تذهل عند سماعها عقول أولي الألباب وتضل لهولها الآراء عن الصواب)[٤]،

---

١ طومان باي آخر سلاطين المماليك (د. عبد المنعم ماجد) صفحة ٤١

٢ طومان باي آخر سلاطين المماليك (د. عبد المنعم ماجد) صفحة ٥٣

٣ طومان باي آخر سلاطين المماليك (د. عبد المنعم ماجد) صفحة ٥٩

٤ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ٨٠ ولاحظ معي أسلوب ابن إياس في وصف المصيبة التي حلت بسلطان مصر، ويبدو أن الحنفي كان مؤرخًا وشاعرًا ومثقفًا وعلى قدر عالٍ من الوعي وله أسلوب شيق في الكتابة.

زحف عسكر ابن عثمان ووصل أوائله إلى الجبل الأحمر، فلما بلغ السلطان طومان باي ذلك زعق النفير في الوطاق ونادى السلطان للعسكر بالخروج إلى قتال عسكر ابن عثمان، فركبت الأمراء المقدمون ودقوا الطبول حربيًا وركب العسكر قاطبة حتى سد الفضاء، وأقبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر وهم السواد الأعظم، فتلاقى الجيشان في أوائل الريدانية، فكان بين الفريقين وقعة مهولة يطول شرحها أعظم من الوقعة التي كانت في مرج دابق، حتى انكسر عسكر مصر وولى مدبرًا، فثبت بعد الكسرة السلطان طومان باي، وهو يقاتل بنفسه في نفر قليل من الرماة والمماليك السلحدارية)[1]، وانتهت معركة الريدانية بهزيمة ساحقة للمماليك ودخل سليم الأول مصر منتصرًا.

وكتب ابن إياس (فاستمر السلطان طومان باي - يقع - مع عسكر ابن عثمان ويقتل منهم في كل يوم ما لا يحصى عددهم، فرأى عين الغلب وقد تكاسل العسكر عن القتال واختفوا في بيوتهم وتفرقت الأمراء، واستمر السلطان يقاتل وحده بمفرده في نفر قليل، وكان قليل الحظ غير مسعود الحركات في أفعاله فكان كما يقال:[2]

قليل الحظ ليس له دواء ولو كان المسيح له طبيب

(وكان السلطان، كلما رام أن ينتصر على ابن عثمان ينعكس، فكان كما يقال في المعنى[3]

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده

---

١ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ٨٢

٢ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ٩٢

٣ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ١٠٦

فكان من الطبيعي أن يختفي السلطان طومان باي بعد أن تفرق المماليك من حوله، وبدا له مما لا يدع مجالاً للشك مدى تكاسلهم عن القتال، فذهب طومان باي إلى بعض من يثق به من معارفه، ولكن للأسف تم العثور عليه، ولم يصدق الناس خبر القبض على السلطان طومان باي، فأمر السلطان سليم الأول بشنقه على باب زويلة حيث اعتاد الحكام شنق القتلة وقاطعي الطرق (فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة، وكثر عليه الحزن والأسف؛ فإنه كان شابًا حسن الشكل سنه نحو أربع وأربعين سنة، وكان شجاعًا بطلاً تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب وحده بنفسه، وكان ملكًا حليمًا قليل الأذى كثير الخير، وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاثة أشهر وأربعة عشر يومًا، وكان في هذه المدة في غاية التعب والنكد، وقاسى شدائد ومحنًا وحروبًا وشرورًا وهجاجًا من البلدان، وآخر الأمر شنق على باب زويلة وأقام ثلاثة أيام وهو معلق على الباب حتى جافت رائحته، وفي اليوم الثالث أنزلوه فغسّلوه وكفّنوه وصلوا عليه ودفنوه ومضت أخباره كأن لم يكن).[1]

١ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ١١١

ويرى الكاتب الساخر الكبير محمود السعدني أن (التي تدلت من الحبل لم تكن جثة طومان باي، ولكنها كانت في الحقيقة جثة مصر، ولقد ماتت قرونًا طويلة قبل أن يكتب لها البعث من جديد، وجاء السلطان العثمانلي ودخلت مصر في سرداب التاريخ وتحولت من سلطنة إلى ولاية، وخيم عليها الظلام وأصابها الضمور، وإذا كان السلطان العثمانلي قد قطع رأس سلطان المماليك فقد أبقى على المماليك أنفسهم، ولم يلبث هؤلاء أن تزيوا بزي العثمانلي ورطنوا بلسانه واشتغلوا تحت رايته).[١]



١ مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة ٦٧

مماليك العصر العثماني
وأبرز الأحداث التي عاصروها

المؤرخ البريطاني ستانلي لين بول يصف بعض أمراء من مماليك العصر العثماني:

جدير بالذكر أن المماليك في العصر العثماني تحولوا إلى أمراء وبكوات، وكانوا قبل ذلك سلاطين وملوكًا في أيام المماليك البحرية والمماليك البرجية، حتى خضعت مصر للحكم العثماني وأصبحت ولاية تابعة بعد أن كانت مملكة مستقلة، وبالرغم من ذلك قام مماليك العصر العثماني بمحاكاة سابقيهم من سلاطين المماليك لينالوا المجد والشرف، ولكن كان هناك فرق كبير، وعن هذا الموضوع كتب المؤرخ والباحث البريطاني ستانلي لين بول ما يلي: (والواقع أنه يصعب علينا كشف أي فارق جوهري بين هؤلاء الأمراء المتأخرين، وبين أولئك الذين ظهروا خلال العصر الذهبي لحضارة المماليك، حقيقةً أن فرصهم المواتية كانت أقل؛ لأنهم لم يقووا على القتال في سوريا أو آسيا الصغرى لمصلحتهم الخاصة، وذلك لأن الخطط التي كانت ترسم في مصر على الدوام للاستغلال الأجنبي، كانت تستخدم كجانب ضئيل للجيوش العثمانية،

إلا أن من الواضح أن شخصياتهم وأعمالهم وميولهم كانت تشبه إلى أبعد الحدود ما كانوا عليه في القرنين السابقين لهم، فقد كان الفرق إذن في الحكم لا في النوع، ذلك أنهم لم يكونوا أناسًا ذوي فرص عظيمة مثلما كان أسلافهم، وإنما كانوا يشبهونهم في الجنس والخلق والعمل إلى حد بعيد، والحقيقة أن بعضهم كان ذا شخصية قوية يمكن مقارنتها بشخصيات المدرسة القديمة، فعثمان بك ذو الفقار – على سبيل المثال – في النصف الأول من القرن الثامن عشر في عام ١٧٣٩م أصبح أميرًا للحج وهو من أشهر المناصب في مصر، وكان عثمان بك هو أول أمير يجرؤ على دعوة باشا مصر "العثماني" لوليمة في قصره، وقد كان خضع بسيطرته بقية نبلاء مصر خضوعًا تامًا، كما أنه كان يعقد مجلسًا في قصره الخاص ليبحث أسباب الشكوى، وكان يعاقب في صرامة وشدة كل حالات الاغتصاب والظلم؛ لأنه هو نفسه كان نقيًا نزيهًا، كذلك كان يراقب مفتش الأسواق عن كثب، ويحدد أسعارًا ثابتة للخبز وغيره من ضروريات الحياة، ويتأكد من أن أموال البر تنفق في الأوجه الصحيحة، ولقد كان ساميًا في خلقه، ذا أفكار وآراء نبيلة، عادلاً، قوياً، نزيهًا، ذا حياة شريفة، أبيًا كريمًا، بحيث أنه خلف من ورائه أثرًا، حينما تسببت مؤامرات خصومه في نفيه من مصر، كان من نتيجته أن كان ينسب إليه عصر من العصور، فقد كان القوم يقولون مثلاً: إن ذلك الشيء حدث بعد رحيل عثمان بك ببضعة سنوات،

أو لقد كان عمري كذا من السنين حينما رحل عثمان بك، ولقد كان رضوان بك الجلفي، علمًا بارزًا آخر من أعلام القرن الثامن عشر، فحينما كان يتولى السلطة هو ونائب آخر يدعى إبراهيم، كانت البلاد تتمتع بسلام شامل، وكان الطعام أرخص منه في أي وقت قبل ذلك، وعلى الجملة فإن جميع الطبقات كانت تعيش في يسر ورخاء، وكان كل رجل عظيم في تلك الأيام يفتح منزله مرتين كل يوم في الظهر والمساء لكل قاصٍ ودان، وذلك في بهو عظيم الاتساع، وكان السيد وضيوفه يتصدرون المائدة، ثم يليهم المماليك والأتباع، وكان من العار ألا يسمح لأي غريب بالدخول ما دام قد قدم بنفسه إلى هناك، أما أيام الأعياد فكانت توزع أطباق كبيرة من الأرز وعسل النحل أو اللبن على الفقراء، كذلك كانت توزع الحلوى في أيام الجمع والاحتفالات الرسمية، وكان أحد منازل رضوان الأنيقة يقع على بركة الأزبكية التي كانت موجودة في ذلك الوقت، وكانت تعلو ردهاته قباب بديعة الزينة، فيها نقوش عربية من الذهب على أرضية لونها أزرق ومرصعة بالزجاج باللون المتناسق الذي يكسبها روعة فوق الروعة، كذلك فإنه بنى أكشاكًا في حديقة بجوار قناة حيث كان قد حفر بركة وأقام جندلاً، وهناك وحينما خمدت أطماعه وآماله كان ينغمس في الملذات التي كان يسر منها كثيرًا، والحقيقة أن رضوان لم يكن يهتم بالأخلاق مثلما كان يهتم عثمان بك).[1]

---

١ نقلاً باختصار عن كتاب سيرة القاهرة للمؤرخ البريطاني ستانلي لين بول صفحة ٢٣٧، ٢٣٨

علي بك الكبير:

من أبرز الأحداث في العصر العثماني في مصر ما حدث في عهد الأمير المملوكي علي بك الكبير، فأثناء قيام الدولة العثمانية بقتال روسيا والنمسا خلال القرن الثامن عشر كان شيخ البلد في مصر علي بك الكبير الذي انتهز فرصة حروب العثمانيين الكثيرة وانشغالهم بها وأعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية، وإليك بعض ما كتبه الرافعي عن هذا الموضوع (فلما نشبت الحرب بين تركيا والروسيا سنة ١٧٦٨ جاهر بخلع يده من طاعة الدولة وأعلن استقلال مصر وامتنع عن دفع الخراج سنة ١٧٦٩م "١١٨٣هـ" وعزل الوالي التركي ومنع ورود الولاة العثمانيين وضرب النقود باسمه ودانت له مصر بحريها وقبليها وكان من مماليكه وأتباعه أحمد "باشا" الجزار ومحمد بك أبو الذهب وإسماعيل بك وحسن بك الجداوي وإبراهيم بك ومراد بك وغيرهم مما كانت لهم الأدوار الكبيرة على مسرح الحوادث)[١]. (وكان علي بك طموح النفس واسع المطامع، فجرد الجيوش وفتح معظم جزيرة العرب ونادى به شريف مكة "سلطان مصر وخاقان البحرين"، وأوفد محمد بك أبا الذهب ليفتح باسمه سوريا ففتح معظمها، ولكنه لم يكد يتم له فتح دمشق حتى انقلب على علي بك الكبير واتفق مع الباب العالي وعاد إلى مصر ليستأثر بالحكم فيها.

---

١ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج١ صفحة ٣٧

وقامت الحرب بينه وبين سيده وانتهت بقتل علي بك سنة ١٧٧٣ وعادت مصر ولاية عثمانية، وخلصت إمارتها لمحمد بك أبي الذهب واستقر شيخًا للبلد، وكافأته تركيا بفرمان تثبيته في مشيخة البلد وتوليته حكم مصر، وصار له الأمر والنهي في البلاد ورجعت تركيا إلى إرسال الولاة كما كان الأمر قديمًا غير أن الوالي كان محجورًا عليه مسلوبًا حوله وقوته، ومحمد بك أبو الذهب يختار الوالي الذي يرتضيه والأمراء وقواد الجند وأعيان الدولة وكافة مماليكه وأتباعه إلى أن مات سنة ١٧٧٥ م "١١٨٩هـ" فخلفه في مشيخة البلد إبراهيم بك وقاسمه السلطة مراد بك).[١] ومحمد بك أبو الذهب يوجد باسمه حاليًا مسجد بجوار الجامع الأزهر، وقد وصف الجبرتي محمد بك أبو الذهب عندما كتب عن حوادث سنة ١١٨٨ هـ "١٧٧٤م" فقال: "استهلت ووالي مصر خليل باشا محجور عليه ليس له في الولاية إلا الاسم والعلامة على الأوراق، والتصرف الكلي للأمير الكبير محمد بك أبو الذهب والأمراء وأعيان الدولة مماليكه وإشراقاته والوقت في هدوء وسكون وأمن والأحكام في الجملة مرضية والأسعار رخية وفي الناس بقية وستائر الحياء عليهم مرخية.. شعر:

وما الدهر في حال السكون بساكن ... ولكنه مستجمع لوثوب"[٢]

---

١ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج١

٢ عجائب الآثار (الجبرتي) ج٢ صفحة ٦٠٤

وكتب الرافعي يصف أحوال المصريين قبل دخول نابليون ما يلي: "كان المسلمون والأقباط يشتركون على السواء في احتمال ظلم الحكام وسوء الإدارة، وشارك الأقباط إخوانهم المسلمين في الزراعة والصناعة والتجارة، وتخصص الأقباط في الأعمال الحسابية والمالية، فعهد إليهم البكوات المماليك والكشاف بتحصيل الضرائب وتقديرها"[١] كما وصف الرافعى القاهرة في ذلك الوقت بقوله: "كانت القاهرة ولم تزل أكبر مدن القطر المصري وعاصمته ومقر حكومته، وكانت حدود العمران فيها تنتهي شمالاً من الحسينية إلى باب الحديد، وجنوبًا من القلعة إلى باب عرب اليسار إلى باب السيدة عائشة إلى جامع السيدة نفيسة فباب طولون فباب البغالة فباب السيدة زينب، وشرقًا من القلعة فباب الوزير فباب الغريب فالحسينية، وغربًا من باب الحديد إلى الأزبكية فباب اللوق فباب الشيخ ريحان فباب الناصرية فباب السيدة زينب، وكان موقع المدينة يبعد أكثر من ألف متر عن شاطئ النيل، وبينها وبينه مزارع، وإذا أردت أن تعرف الفرق بين عمرانها في ذلك العصر وحدوده في العصر الحاضر، فحسبك ملاحظة بعض المعالم المعروفة في العصرين، فجامع الظاهر مثلاً وهو الكائن الآن بميدان الظاهر كان خارج باب الحسينية وخارج مباني القاهرة، وكان باب الحديد نهاية حدود مباني القاهرة من الشمال الغربي، والأزبكية والمباني التي حولها نهاية العمران غربًا،
والطريق بينها وبين بولاق مقفرة خالية من العمران، لذلك كانت بولاق تعد من ضواحي العاصمة كما كانت مصر القديمة أيضًا،

---

١ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٦٥

وكانت الطريق بين الناصرية ومصر القديمة مقفرة من المساكن ليس بها إلا مزارع وحدائق، ولم يكن على شاطئ النيل سوى بعض مبان قليلة كقصر إبراهيم بك "قصر العيني" تجاه الروضة، وبجواره بيت لمحمد كاشف الأرناؤوطي، وعن شماله بيت لمصطفي بك، وكانت بولاق مرفأ القاهرة في الشمال ومصر القديمة مرفأها في الجنوب"[1] ويضيف الرافعي: "وبالرغم مما أصاب البلاد والعاصمة من التأخر في خلال العصور فإن عظمتها القديمة قد تغلبت على عوامل الفناء وسوء الإدارة، فقد كانت أعظم بلاد الشرق قاطبةً بعد الأستانة، وكان بها كثير من المساجد والعمائر الجميلة وكثير من القصور والمعاهد ودور الكتب الملحقة بها والحمامات، وبها كثير من الأسواق التجارية الكبيرة والخانات والمخازن "الوكائل".[2] وبالمناسبة كان هناك أربعة ميادين رئيسية كبيرة منها ميدان قراميدان تحت القلعة، وميدان الرميلة المجاور لقراميدان، ويفصلهما باب اسمه قراميدان، وميدان بركة الفيل، وميدان الأزبكية "بركة الأزبكية"، "وكان ميدان الأزبكية – أو بركة الأزبكية كما كانوا يسمونها – أجمل الميادين الأربعة تحيط به القصور البديعة يسكنها الأمراء والأعيان".[3] وكان تقدير عدد سكان العاصمة القاهرة حوالي ٣٠٠٠٠٠ نسمة،[4] وفي تقدير آخر ٢٦٣٠٠٠ نسمة، وكانت الإسكندرية ولا زالت أهم وأكبر مدينة بعد القاهرة.

---

١ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٦٧، ٦٨

٢ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٦٩

٣ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٦٩

٤ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٧٠

الجبرتي يصف أسعار السلع سنة ١١٦٧ هـ / ١٧٥٤م وهو العام الذي ولد فيه:

نقلاً عن كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار لعبد الرحمن الجبرتي حيث كتب ما يلي:

"ومصر في تلك المدة هادية من الفتن والشرور والإقليم القبلي والبحري أمن وأمان والأسعار رخية والأحوال مرضية، واللحم الضاني المجروم من عظمه رطله بنصفين والجاموسي بنصف والسمن البقري عشرته بأربعين نصف فضة، اللبن المنعاد كذلك والمكرر قنطاره بألف نصف والعسل القطر قنطاره بمائة وعشرين نصفًا وأقل، والرطل البن القهوة باثني عشر نصفًا، والتمر يجلب من الصعيد في المراكب الكبار ويصب على ساحل بولاق مثل عرم الغلال ويباع بالكيل والإردب، والأرز إردبه بأربعمائة نصف، والعسل النحل قنطاره بخمسمائة نصف وشمع العسل رطله بخمسة وعشرين نصفًا، وشمع الدهن بأربعة أنصاف والفحم قنطاره بأربعين نصفًا والبصل قنطاره بسبعة أنصاف، وفسر على ذلك.

يقول جامعه: إني أدركت بقايا تلك الأيام وذلك أن مولدي كان في سنة ١١٦٧هـ ولما صرت في سن التمييز رأيت الأشياء على ما ذكر إلا قليلا، وكنت أسمع الناس يقولون الشيء الفلاني زاد سعره عما كان في سنة كذا، وذلك في مبادئ دولة إبراهيم كتخدا وحدوث الاختلال في الأمور،

وكانـت مصـر إذ ذاك محاسـنها بـاهرة وفضـائلها ظـاهرة ولأعـدائها قـاهرة، ويعيش رغدًا بها الفقير وتتسع للجليل والحقير، وكان لأهل مصر سنن وطرائق في مكارم الأخلاق لا توجد في غيرهم، أن في كل بيت من بيوت جميع الأعيان مطبخين أحدهما أسفل رجالي، والثاني في الحـريم، فيوضـع في بيـوت الأعيـان السـماط في وقتي العشـاء والغـداء مستطيلاً في المكان الخـارج مبـذولاً للنـاس، ويجلـس بصـدره أمير المجلس وحوله الضيفان، ومن دونهم مماليكه وأتباعه، ويقـف الفراشـون في وسـطه يفرقـون على الجالسـين ويقربـون إليهم ما بعد عنهم مـن القلايا والمحمرات، ولا يمنعـون في وقـت الطعـام من يريـد الـدخول أصـلاً، ويـرون أن ذلـك مـن المعايـب حتى أن بعـض ذوي الحاجـات عنـد الأمـراء إذا حجـبهم الخـدام انتظـروا وقـت الطعـام ودخلوا فلا يمنعهم الخدم في ذلك الوقت، فيدخل صاحب الحاجة ويأكل وينـال غرضـه مـن مخاطبـة الأمير؛ لأنـه إذا نظـر على سـماطه شخصًا لـم يكـن رآه قبـل ذلـك ولـم يـذهب بعـد الطعـام عـرف أن لـه حاجـة، فيطلبـه ويسـأله عـن حاجتـه فيقضيها لـه، وإن كان محتاجًا واساه بشيء، ولهم عـادات وصدقات في أيام المواسم، مثل أيام أول رجـب والمعـراج ونصـف شـعبان وليـالي رمضـان والأعيـاد وعاشـوراء والمولد الشريف، يطبخون فيها الأرز باللبن والزردة ويملأون من ذلك قصاعًا كثيرة ويفرقون منها على من يعرفونه من المحتاجين، ويجتمع في كل بيت الكثير من الفقـراء فيفرقـون عليهم الخبز ويـأكلون حتى يشبعوا من ذلك اللبن والزردة، ويعطونهم بعد ذلك دراهم،

ولهم غير ذلك صدقات وصلات لمن يلوذ بهم، ويعرفون منه الاحتياج، وذلك خلاف ما يعمل ويفرق من الكعك المحشو بالسكر والعجمية والشريك على المدافن والترب في الجمع والمواسم، كذلك أهل القرى والأرياف فيهم من مكارم الأخلاق ما لا يوجد في غيرهم، فإن أقل ما فيهم إذا نزل به ضيف ولو لم يعرفه اجتهد وبادر بقراه في الحال وبذل وسعه في إكرامه وذبح له ذبيحة في العشاء، وذلك ما عدا مشايخ البلاد والمشاهير من كبار العرب والمقادم، فإن لهم مضايف واستعدادات للضيوف، ومن ينزل عليهم من السفر والأجناد، ولهم مساميح وأطيان في نظير ذلك خلفًا عن سلف إلى غير ذلك مما يطول شرحه ويعسر استقصاؤه".

إبراهيم بك ومراد بك:

تحت عنوان كذاب الزفة كتب المؤرخ الكبير جمال بدوي يصف إبراهيم بك ومراد بك آخر من سيطر من بكوات المماليك على حكم مصر في العصر العثماني، وإليك مقتطفات مما كتبه:

"كان هذان المملوكان الغاصبان – إبراهيم بك ومراد بك – يتمتعان بكمية هائلة من السفالة وقلة الحياء، فهما أسدان جسوران على الشعب المصري المسالم المستكين، ولا يتورعان عن حرق القرى وتدمير المزروعات وهتك الأعراض وسبي النساء وسفك الدماء وتشريد الناس في الفلوات من أجل حفنة ريالات، ولكنهما كانا أرنبين هزيلين في ساحة الوغى،

فما إن يبدأ وطيس القتال حتى يطلقا سيقانهما للريح تاركين المصريين العزل كالأيتام على مائدة اللئام، فإذا زال الخطر وانقشع العدو عاد المماليك ليستأنفوا مظالمهم وجبروتهم بعد أن يقسموا بأغلظ الأيمان أنهم تابوا وأنابوا ولن يعودوا سيرتهم الأولى، والمؤسف أن المصريين كانوا يصدقونهم، فيسلمون إليهم رقابهم مرة أخرى، كان إبراهيم بك أكثرهما دهاءً ومكرًا ولذلك لم يورط نفسه في معركة غير محسوبة، أما مراد بك فكان كما وصفه الجبرتي (يغلب عليه طبعه الخوف والجبن مع التهور والطيش والتورط في الإقدام مع عدم الشجاعة، ولم يُعهد عنه أنه انتصر في حرب باشرها أبدًا على ما فيه من الادعاء والغرور والكبر والخيلاء والصلف والظلم والجور)، ولقد دلت جميع الأحداث على أن هذا الأمير المتسلط كان مغرورًا إلى حد البلاهة "همباكًا" إلى درجة العبط، "جعجاعًا" في تقدير بطولته وقدرته على سحق الألوف بضربة واحدة من سيفه، ولذلك تشاءم المصريون عندما علموا أنه سوف يتصدى لملاقاة جيش نابليون أثناء زحفه على القاهرة قادمًا من الإسكندرية؛ لأنهم كانوا يعرفون أن قائدهم "كذاب زفة" ولن يصمد طويلاً في المعركة، وكان مراد بك قد صرح قبل خروجه إلى المعمعة بأن الفرنسيين مثل حبات الفستق لا يصلحون إلا للكسر والأكل".[1]

١ مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٢٣، ٢٤

وصول الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت:

وصف الجبرتي أول سنة من الحملة الفرنسية على مصر وبداية أحداث الحملة، وقد يكون بعض أو معظم كلام الجبرتي غير مفهوم بالنسبة لنا حاليًا، ولكن تأكد أن الذي لن تفهمه سوف تشعر بمعناه وبمعنى كل حرف فيه، كتب الجبرتي يصف سنة ١٢١٣ هـ ما يلي: "وهي أولى سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالي المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (١١٧) سورة هود، وفي يوم الأحد العاشر من شهر محرم الحرام من هذه السنة "٢٤ يونيو ١٧٨٩م" وردت مكاتبات على يد السعاة من ثغر الإسكندرية ومضمونها: أن في يوم الخميس ثامنه حضر إلى الثغر عشرة مراكب من مراكب الإنكليز ووقفت على البعد بحيث يراها أهل الثغر، وبعد قليل حضر خمسة عشر مركبًا أيضًا فانتظر أهل الثغر ما يريدون، وإذا بقايق واصل من عندهم وفيه عشرة أنفار فوصلوا البر، واجتمعوا بكبار البلد والرئيس إذ ذاك فيها والمشار إليه بالإبرام والنقض، السيد محمد كُريّم الآتي ذكره، فكلموهم واستخبروهم عن غرضهم فأخبروا: أنهم إنكليز حضروا للتفتيش على الفرنسيس لأنهم خرجوا بعمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات ولا ندري أين قصدهم،

فربما دهموكم فلا تقدرون على دفعهم ولا تتمكنون من منعهم، فلم يقبل السيد محمد كريم منهم هذا القول وظن أنها مكيدة وجاوبهم بكلام خشن، فقالت رسل الإنكليز: نحن نقف بمراكبنا في البحر محافظين على الثغر لا نحتاج منكم إلا الإمداد بالماء والزاد بثمنه، فلم يجيبوهم لذلك وقالوا: هذه بلاد السلطان وليس للفرنسيس ولا لغيرهم عليها سبيل فاذهبوا عنا، فعندها عادت رسل الإنكليز وأقلعوا في البحر ليمتاروا من غير الإسكندرية وليقضي الله أمرًا كان مفعولا".[1]

وعندما وصلت هذه الأخبار إلى القاهرة انتشر القيل والقال بين الناس، أما المماليك فلم يهتموا بشيء من ذلك على حد تعبير الجبرتي "ولم يكترثوا به اعتمادًا على قوتهم وزعمهم أنه إذا جاءت جميع الفرنج لا يقفون في مقابلتهم وأنهم يدوسونهم بخيولهم".[2]

١ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (الجبرتي) ج٥ صفحة ١

٢ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٢

احتلال الإسكندرية:

كان جيش نابليون مكوّنًا من ٣٦ ألف مقاتل،[١] وعدد السفن التي نقلتهم حوالي (ثلاثمائة سفينة يحرسها أسطول مؤلف من ٥٥ سفينة حربية)[٢] وكانت الإسكندرية في أسوأ حالاتها من ناحية الدفاعات العسكرية بل من جميع النواحي نتيجة لإهمال القلاع والحصون والمدافع التي بها حتى أن قنصل فرنسا في مصر أرسل قبل ذلك تقريرًا عن حالة الإسكندرية العسكرية وذكر فيه "إن مرافئ الإسكندرية خالية من القلاع والمدفعية والذخائر، أما قلعة المنارة "قلعة قايتباي" في ظاهرها فخمة ولكنها تكاد تكون خالية من الحامية ومن الذخائر والمدفعية، والمدفعية الباقية لا تصلح للضرب ولا تستعمل إلا في أيام الأعياد"،[٣] ومن هذا التقرير يتضح مدى ضعف الإسكندرية قبل وصول نابليون، "وهكذا شاءت الأقدار أن ينجو نابليون وجنوده من أسطول الأميرال نلسن فاقتربت العمارة "البحرية" من مياه الإسكندرية يوم ٣٠ يونيو ١٧٩٨"،[٤] وعندما علم نابليون بأن الإنجليز كانوا موجودين في الإسكندرية قبل وصوله "خشي عودة الأميرال نلسن ومباغتته بأسطوله في عرض البحر، فأمر بالمبادرة إلى إنزال الجنود للبر،

---

١ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٨٢

٢ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٨٤

٣ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ١٦٢

٤ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ١٦٧

واختار لمرسى عمارته ونزول جنوده جهة العجمي التي تبعد عن الإسكندرية غربًا نحو اثني عشر كيلومترًا".[1] واستمر إنزال القوات طول الليل، ثم في الصباح قاموا بمحاصرة المدينة والهجوم عليها بقسوة، ولم تستسلم المدينة بسهولة، بل كان القتال شرسًا وعنيفًا والمقاومة على أشدها حتى أن نابليون نفسه كاد أن يلقى مصرعه "كتب الجنرال برتييه في رسالته إلى وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ ٦ يوليو سنة ١٧٩٨ م يصف احتلال الفرنسيين للإسكندرية فقال: إن الأهالي دافعوا عن أسوار المدينة دفاع المستميت، وقد أصيب في هذه الموقعة الجنرال كليبر بعيار ناري في جبهته فجرح جرحًا بليغًا وأصيب الجنرال منو بضربة حجر أسقطته من أعلى السور فنالته رضوض شديدة، وقُتِل اللواء ماس وخمسة ضباط آخرون، وقدّر نابليون خسائر الجيش الفرنسي في مهاجمة الإسكندرية في رسالته إلى حكومة الديركتوار "الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت" بثلاثين إلى أربعين قتيلاً وثمانين إلى مائة جريح، وقدرها بعد ذلك في مذكراته بثلاثمائة بين قتيل وجريح".[2]

---

١ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ١٦٩

٢ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ١٧١

رواية الجبرتي عن احتلال الإسكندرية:

وصف الجبرتي وصول الفرنسيين ومراكبهم فقال: "فلما دخل الليل تحولت منهم مراكب إلى جهة العجمي وطلعوا إلى البر ومعهم آلات الحرب والعساكر، فلم يشعر أهل الثغر وقت الصباح إلا وهم كالجراد المنتشر حول البلد، فعندها خرج أهل الثغر فلم يستطيعوا مدافعتهم ولا أمكنهم ممانعتهم ولم يثبتوا لحربهم، ورجع أهل الثغر إلى التترّس في البيوت والحيطان، ودخلت الفرنج البلد وانبث فيها الكثير من ذلك العدد، كل ذلك وأهل البلد لهم بالرمي يدافعون عن أنفسهم وأهليهم يقاتلون ويمانعون، فلما أعياهم الحال وعلموا أنهم مأخوذون بكل حال وليس ثم عندهم للقتال استعداد لخلو الأبراج من آلات الحرب والبارود وكثرة العدو وغلبته طلب أهل الثغر الأمان"،[1] وهكذا تم احتلال الإسكندرية وترك نابليون بها الجنرال كليبر ومعه قوة من الجيش لتأمينها وإخضاع ما حولها من قرى وبلدان، وأمره بمعاملة السيد محمد كريم معاملة حسنة، وذلك ليتودد للمصريين، رغم أن محمد كريم هو الذي قاد المقاومة، ثم إن نابليون زحف بجيشه في اتجاه القاهرة ليواجه جيش المماليك ويحتل باقي مصر، وبالمناسبة وقبل أن نترك الإسكندرية فإن كليبر الجريح واجه مشكلات ومقاومة عنيفة في الإسكندرية وما حولها، واتهم محمد كريم بأنه هو المحرض والمسبب لكل هذا العنف، فأرسله إلى نابليون وتم إعدامه.

١ عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٢

المماليك والحملة الفرنسية:

ذكرنا أنه قبل وصول الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت كان الأمراء المماليك يحكمون مصر في ظل الحكم العثماني، وكما لو كانوا قد توقف بهم الزمن عند أيام أسلافهم من سلاطين المماليك قبل خضوع مصر للحكم العثماني، فكانوا يعيشون على ذكريات أمجاد الانتصارات التاريخية القديمة على التتار والصليبيين وغيرهم، فلم يدركوا حجم التطور الهائل الذي وصل إليه جيش نابليون بونابرت، فقد وصف الجبرتي عدم اهتمامهم عند سماعهم خبر قدوم الحملة الفرنسية على مصر، وقد وردت تفاصيل عجيبة عن المعركة التي دارت بين المماليك والفرنسيين في الكتاب الخامس من سلسلة كتب - صفحات من تاريخ مصر- وهو بعنوان تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل، تأليف المستر جورج يانج، تعريب على أحمد شكري - الطبعة الثانية ١٩٩٦ - مكتبة مدبولي - ويؤكد المؤرخ جورج يانج في هذا الكتاب أن فن المماليك العسكري قد صار عتيقًا، ويقول: "وقد نشعر بالعطف على ما أظهره المماليك من الإقدام والبسالة عند مهاجمتهم لنابليون، وقد رأى نابليون أن احتلال مصر عسكريًا لن يكلفه متاعب كبيرة لأن الجيش الفرنسي وعدده حوالي ٤٠٠٠٠ زحف بطريق الصحراء بشكل مربع مجوف على القاهرة،

وكـان رسـل المدنيـة الحديثـة – علمـاء الحملـة - المائـة والاثنـان وعشرون في قلب الجيش، بينما جيش المماليك في عرض الأفق، ووقف المماليك يرمقون العدو بنظرة الاحتقار والازدراء، وأخيرًا برز أحدهم ظانًا أن عصر الفروسية ما يزال باقيًا وقد لبس عدة الحرب الكاملة المطرزة بالحرير وتقدم إلى الفرنسيين حتى صار على بضع خطوات منهم، وهنالك طلب مبارزة الكولونيل، ولكن الفرنسيين وقد أضناهم الحر والجوع والعطش – أجابوا على طلب المبارزة بإطلاق الرصاص من بنادقهم فتركوا صاحبنا نصير الفروسية مجرد سلب ملطخ بالدماء، وما كانت معركة الأهرام التي نشبت على أثر ذلك وحاول فيها المماليك منع دخول الفرنسيين إلى القاهرة سوى تكرار لهذا الحادث ولكن على مقياس أكبر، فقد اشترك فيها نحو ١٠٠٠٠ من فرسان المماليك وبضعة آلاف من المشاه الإنكشارية وعدد من المقاتلين المصريين ولكن كان نصيبهم جميعًا الهزيمة ثم الغرق في مياه النيل، هذا في حين أن خسائر الفرنسيين لم تتجاوز المائة، على أن بكوات المماليك لم يجيدوا الكر والفر فقط بل كثيرًا ما اقتحموا مربعات القادة الفرنسيين – ديزيه ورينييه – ولكن هذا الاستبسال كانت نتيجته الفناء الأكيد، وجدير بالذكر أن هذه المعركة المعروفة باسم معركة الأهرام أو معركة إمبابة تمت في يوم ٢١ يوليو سنة ١٧٩٨ نزل الفرنسيون على بعد ميلين من إمبابة فكانوا بين النيل والأهرام وإمبابة أمامهم، وفيها مراد بك وجنوده وهم بدروعهم البراقة وملابسهم الزاهية،

فلما رأى بونابرت حسن استعدادهم التفت إلى جنوده وقال جملته المأثورة: اعلموا أن خمسين قرنًا تنظر إليكم من قمم هذه الأهرامات وتراقب حركاتكم تنظر ما سيصبح عليه أمركم مع هؤلاء المماليك، ثم أمر فرقة الجنرال ديزيه بالتقدم نحو اليمين والفرق الأخرى نحو اليسار، لكن مراد بك أدرك سر هذه المناورة فأمر أيوب بك الدفتردار بالهجوم، فهجم أيوب بك وهو يصيح: ويل لكم أيها الملاعين، قد ساقكم كبرياؤكم إلى أرضنا، إننا سنملأ القبور بأجسادكم ونجعل هذا اليوم يومًا تذكره أعقابكم من بعدكم، ودارت المعركة إلى أن تقهقر المماليك وقُتِل أيوب بك وفر مراد بك إلى الصعيد واستولى بونابرت على إمبابة.

المنشور الفرنسي للشعب المصري:

درس نابليون مصر وأحوالها جيدًا قبل حضوره، وأحضر معه مطبعة عربية ومترجمين على أعلى مستوى، واستخدم المطبعة وهو لا زال في البحر في طريقه إلى مصر، وطبع نسخًا عديدة من أول منشور لتوزيعه بمجرد الوصول إلى مصر حتى لا يضيّع الوقت في الطباعة، وحتى لا تحول أعمال القتال دون تنفيذها، وكان هذا المنشور يؤكد أن نابليون قد أتى إلى مصر لقتال المماليك فقط لأنهم يسيئون معاملة التجار الفرنسيين، وأعلن أنه لم يأتِ لقتال الشعب المصري نفسه، وحاول في هذا المنشور أن يستثير القومية المصرية لفصل الشعب المصري عن الأمة الإسلامية،

كما أثار فيهم الحقد على المماليك لما يتمتعون به من رفاهية الدنيا ونعيمها، وشمل المنشور أيضًا تهديدًا واضحًا بحرق أي قرية تقف في طريقه، كما تودد في هذا المنشور للسلطان العثماني، ويعتبر هذا المنشور أكبر دليل على أن نابليون كان معتقدًا بل متأكدًا من مدى سذاجة وتخلف الشعب المصري، وسوف أتركك مع مقتطفات من هذا المنشور لتقرأ وتتأمل ما فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه، من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية الساري عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته، يعرف أهالي مصر جميعًا أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية، يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي فحضر الآن ساعة عقوبتهم، هذه الزمرة المماليك يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها، فأما رب العالمين القادر على كل شيء فإنه قد حكم على انقضاء دولتهم، يا أيها المصريون قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وأنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم، وقولوا أيضًا لهم: إن جميع الناس متساوون عند الله وأن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب،

ماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء أحسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة، فإن كانت الأرض المصرية التزامًا للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم، ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم، ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدًا لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها، وسابقًا كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك[1]، أيها المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضًا مسلمون مخلصون، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائمًا يحث النصاري على محاربة الإسلام، ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام الله ملكه،[2] طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلى مراتبهم،

---

١ لقد لعب نابليون على الوتر الحساس وذكر عدة حقائق في هذا المنشور، ولكنها كلمة حق يراد بها باطل.

٢ لاحظ معي عزيزي القارئ أن الدولة العثمانية رغم كل شيء كانت لا تزال مرهوبة الجانب وكان للسلطان خليفة المسلمين مكانته أيضًا.

طوبى أيضًا للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين، ولكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقًا إلى الخلاص ولا يبقى منهم أثر – المادة الأولى: جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التي يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذي هو أبيض وكحلي وأحمر، المادة الثانية: كل قرية تقوم على العسكر الفرنسي تحرق بالنار)[1] هذا المنشور به مواد أخرى وفي نهايته يطلب نابليون من الشعب المصري أن يشكروا الله لانقضاء دولة المماليك.

التعليق على بعض ما جاء بمنشور نابليون:

يتضح من كلام نابليون مدى وعيه بتاريخ مصر ومكانتها، فهو يصفها بأنها الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها، كما أنه يؤكد أنه كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع، ويتهم المماليك بالجهل وبعدهم عن العلم والعقل والفضائل، والسؤال هنا الذي يفرض نفسه، كيف وصل المماليك إلى هذا المستوى من الانحدار في جميع المجالات؟ وكيف تحولت مصر من قبلة العلماء وطلبة العلم إلى هذا المستنقع من الجهل والتخلف؟ وهذا ما سنحاول الإجابة عليه في الفصل القادم إن شاء الله.

---

١ عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٤، ٥، ٦

أسباب انحدار المماليك في مرحلتهم الثالثة والأخيرة

ما بين معركتي المنصورة (١٢٥٠م) وإمبابة (١٧٩٨م):

المعركتان كلاهما دارت بين الجيش الفرنسي والجيش المملوكي، وإن كان الجيش المملوكي في معركة المنصورة كان بقيادة أيوبية، وانتصر المماليك في معركة المنصورة على الجيش الفرنسي، بينما انتصر الجيش الفرنسي في معركة إمبابة على المماليك، والفاصل الزمني بينهما ٥٤٨ سنة، والفرق هائل بين المعركتين، إنه فرق يوضح مستوى التدهور في أحوال مصر وأحوال المماليك أنفسهم، ولقد ذكرنا العديد من الانتصارات الساحقة التي قام بها المماليك البحرية والمعارك الشرسة التي قام بها المماليك البرجية، فلماذا لم يتمكن مماليك العصر العثماني من تحقيق بعض هذه الانتصارات؟ وإن كان المؤرخ الذي وصف معركة الأهرام لم ينكر عليهم الشجاعة والبسالة بل قال بالحرف "وقد نشعر بالعطف على ما أظهره المماليك من الإقدام والبسالة عند مهاجمتهم لنابليون"، ومن هنا يتضح أن صفة الشجاعة في القتال لم تتأثر مع الزمن، ولكن الذي اختلف هو الجهل والتخلف الذي سنحاول التعرف على أسبابه.

الجهل بالموقف الدولي:

ولكن دعنا أولاً نتعرف على مستوى وعي إبراهيم بك ومراد بك في ذلك الوقت لنتأكد من الاختلاف الرهيب بين مستوى المماليك الأوائل إذا جاز التعبير ومستوى هؤلاء المساكين، وقد اخترت لك فقرة من كتاب (صفحات من تاريخ مصر) للكاتب الكبير يحيى حقي حيث كتب تحت عنوان (وجهة نظر قابلة للتصحيح) ما ملخصه: السؤال الذي يتردد في خاطري وأنا أقرأ تاريخ مصر الحديث هو عن مدى إلمام قادتها بالموقف الدولي، فإن الجهل به كان – فيما أعتقد – سبب وقوعهم في أخطاء كثيرة وإصابتهم بخيبة أمل من جنس واحد، مرة بعد مرة دون أن يتعظوا، لم يتمثل الجهل المطبق بالموقف الدولي كما تمثل في إبراهيم بك ومراد بك حينما ظهر أسطول نلسون أمام الشواطئ المصرية وأرسل إليهما يقول إنه يطارد أسطول نابليون الذي أبحر لغزو مصر، لم يسأل أحد من هو نابليون؟ ولماذا يريد غزو مصر؟ ولماذا تطارده حضرتك؟ قالا له إن مصر كنانة الله في أرضه وهي منيعة لأنها من بلاد الدولة العلية، حسباها زعقة أو كرشة بين اثنين من العصبجية لا شأن لمصر بهما، ومع أن مصلحة المماليك توحدت ومصلحة إنجلترا في صد عدوان فرنسا على مصر، فإن مراد بك وزميله لم يحاولا أن يلعبا ورقة نلسون ضد نابليون، كانا يجهلان كل الجهل الصراع القائم بين إنجلترا وفرنسا، وعاد نلسون من حيث أتى دون أن يظفر بإنسان يفهم عنه،

ليس في الجبرتي أي دليل على أن مصر أدركت أن سبب غزو نابليون لأرضها هو – قبل كل شيء – لكسر شكيمة إنجلترا في أوروبا والمحيطات، كذلك لم ينطق نابليون للمصريين بكلمة واحدة تعينهم على فهم الموقف الدولي ودور مصر فيه، لعله وجدهم دون مستوى الفهم.

هناك كتب في التاريخ عنوانها (لو أن ...)، فمن الجائز أن يكون من بين فصولها محاولة الإجابة على السؤال الآتي: (ماذا كان سيحدث لو أن مراد بك وزميله سمحا لنلسون بانتظار نابليون أمام شواطئ مصر بحيث يتم تحطيم أسطول نابليون في موقعة أبي قير قبل الغزو لا بعده؟)، لك أن تتخيل ما تشاء فإني لا أحب هذه التخمينات لأنها سفسطة فارغة، من الخطأ إطلاق وصف (القادة) على إبراهيم بك ومراد بك، لم يكن كل منهما في حقيقة الأمر إلا شيخ منصر همه السلب والنهب وامتلاء جوفه وخزائنه، فليس بعجيب عليهما هذا الجهل المطبق بالموقف الدولي ودور مصر فيه.

التـدرج في الانحـدار مـن المماليـك البحريـة فالبرجيـة فالعثمانية:

من المؤكد أن هذا الانهيار في جميع المجالات لم يحدث فجأة بعد عصر سلاطين المماليك البحرية بل تدرج شيئًا فشيئًا، وكانت هناك عوامل عديدة اجتمعت على انخفاض مستوى المماليك وتغير برامج إعدادهم مع الوقت وعدم الاهتمام الكافي برفع مستواهم في كافة المجالات، وبالتالي انعكس ذلك على مصر بشكل عام وغابت شمس الحضارة عنها ولم يتبق بها سوى آثار تدل على وجودها في يوم من الأيام، وسوف نستعرض معًا عوامل السقوط وأسباب الانهيار ونبدأ بالتعليم.

الانخفاض الحاد في عدد المدارس:

لاحظنا معًا كيف لم يتمكن ابن بطوطة من حصر عدد المدارس في مصر لكثرتها على حد قوله، وكيف كان اهتمام سلاطين المماليك البحرية بالتعليم وبناء المدارس، وكيف كانت مصر في عصرهم مركزًا للعلم والعلماء، وذكرنا أن العلم يبني الإنسان ومن ثم تزدهر الآداب والعلوم والهندسة والفن وتحدث الطفرات الحضارية على يديه، وربما كان برنامج إعداد المملوك سببًا مهمًا في تقديره لقيمة العلم والعلماء، ومع مرور الزمن اختل هذا البرنامج حتى اختفى تمامًا ففقد المماليك إحساسهم بأهمية العلم والعلماء على ما يبدو وخاصة بعد فقدهم للسلطنة وخضوعهم للحكم العثماني الذي حدث في عهده انخفاض حاد في عدد المدارس،

ولـولا وجـود الأزهـر الشـريف في ذلـك الـوقـت لما وجـد مـن يعلـم أو يتلقى العلـم في مصـر، بـل اقتصـر دوره على العلـوم الدينيـة فقـط (والأزهـر اسـتطاع في العصـر العثماني أن يحـتفظ بمكانتـه العلميـة السـامية وأن يقـوم بـأعظم دور في نشـر الثقافـة العربيـة الإسـلامية، وغـدا الأزهـر أيـام العثمـانيين مـلاذًا لعلـوم الـدين واللغـة ومعقـلاً حصينًا للغـة العربيـة في وسـط المحـيط التركي، بـل إنـه مكـن أبنـاء العروبـة مـن مغالبـة لغـة الأتـراك ومقاومتهـا وردهـا عـن التغلغـل في المجتمعات العربيـة، وتمتع الأزهر في العصـر العثماني بمركز انفرادي أكـد قيادتــه وزعامتــه للحيــاة العقليــة فـي مصــر وفـي العــالم الإســلامي)،[1] وهكـذا أصـبح يقـال منـذ ذلـك الـوقـت (ويتـردد علـى الألسـنة أن للمسـلمين قبلتين؛ قبلـة دينيـة هي الكعبـة الشـريفة في مكـة المكرمـة، وقبلـة علميـة هي الأزهـر الشـريف في القـاهرة)،[2] ولـم تعد هنـاك مدارس تعد أطبـاء أو مهندسين وسـائر المهن الأخرى التي كانــت منتشــرة في عصــر المماليــك البحريــة واســتمرت في عصــر المماليـك البرجيـة، حتى أنـه يقـال إن السـلطان العثمـاني قـد جـرد مصـر مـن كل موهوبيهـا في كافـة المجـالات وأخـذهم معـه إلى عـاصمة دولتـه والله أعلم.

---

١ تـاريخ المـدارس في مصـر الإسـلامية (د. عبـد العظـيم رمضـان) صـفحة ٦٦ [الجـامع الأزهـر ودوره في نشـر الثقافـة العربيـة الإسـلامية – الأسـتاذة الـدكتورة سيدة إسماعيل كاشف].

٢ تـاريخ المـدارس في مصـر الإسـلامية (د. عبـد العظـيم رمضـان) صـفحة ٦٦ [الجـامع الأزهـر ودوره في نشـر الثقافـة العربيـة الإسـلامية – الأسـتاذة الـدكتورة سيدة إسماعيل كاشف] صفحة ٦٦

بل إن من أكثر الأمثلة وضوحًا على انخفاض المستوى الثقافي العام ندرة وجود مؤرخين على مستوى عالٍ خلال هذه الفترة، وعندما تقرأ كتاب (مؤرخو مصر الإسلامية) ستجد أنه لم يكن هناك مؤرخون على مستوى من سبقهم طول العصر العثماني في مصر سوى محمد بن أبي السرور البكري، ثم بعد ذلك عبد الرحمن الجبرتي الذي عاصر وصول الحملة الفرنسية وقيام أسرة محمد علي، وقد كان ذلك نتيجة لتضاؤل التراث المصري التاريخي (ومن ثم فإنا نجد التراث المصري التاريخي يتضاءل خلال العصر العثماني، وسيتحول معظمه إلى مؤلفات وملخصات قاصرة تتعلق معظمها بهذا العصر وتعداد سلاطين آل عثمان ونوابهم بمصر، وقلما تعثر إلى جانب ذلك بروايات ضافية عن أحوال مصر ومجتمعاتها في ذلك العصر)،[1] ويقول المؤرخ محمد عبد الله عنان أيضًا: (كان من الطبيعي أن تخبو النهضة الأدبية وأن تتحطم الأقلام بمصر عقب الفتح العثماني، ومن ثم فإنا نرى النهضة التاريخية التي ازدهرت في القرن التاسع والتي خلفت الموسوعات العظيمة في تاريخ مصر الإسلامية تخبو بدورها ولا نجد بعد ابن إياس مؤرخين مصريين يتناولون تاريخ بلادهم بمثل الإفاضة والسعة والتبحر)،[2] وقد كان التراجع الحضاري الذي شهدته الأمة الإسلامية وإغلاق المدارس في مصر وسياسة العزلة وتوقف البحث العلمي كل هذا أدى إلى عدم وجود مؤرخ أو أديب على مستوى لائق.

---

١ مؤرخو مصر الإسلامية (محمد عبد الله عنان) صفحة ١٦٩

٢ مؤرخو مصر الإسلامية (محمد عبد الله عنان) صفحة ١٦٨

تراجع القدرات العسكرية مع فقد الاستقلال وحدوث التبعية:

ومع تراجع دور العلم وانحدار مستوى برامج إعداد المماليك أو اختفائها تمامًا انتشر الفساد في دولة المماليك البرجية، وبالتالي انخفضت الكفاءة القتالية للمماليك مما أدى إلى ضعف دولتهم وعدم قدرتها على تحمل مسئولية قيادة الأمة الإسلامية، فلم تعد دولتهم قادرة على القيام بالتزاماتها، مما جعلها هدفًا سهلاً للبرتغاليين حيث قاموا بالقضاء على طرق التجارة المملوكية في البحر الأحمر والمحيط الهندي وخاصة بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، وكانت من نتائجه تراجع القوة الاقتصادية بالإضافة إلى تراجع القوة العسكرية وانتشار الفساد، وكل ذلك أدى إلى حضور العثمانيين ليقضوا على هذه الدولة ويتسلموا قيادة العالم الإسلامي ثم قيامهم بالعديد من الحروب التي استعانوا فيها بقوات مملوكية تحت قيادة عثمانية، ولكنها لم تكن في الغالب حروبًا ناجحة، وأدت إلى دخول الدولة العثمانية نفسها في مرحلة اضمحلال أدى إلى انتشار الوهن والتخلف في العديد من الولايات التابعة لها ومن بينها مصر، مما أطمع فرنسا وإنجلترا في شغل الفراغ الذي تركته.

كثرة تغيير الولاة العثمانيين في مصر والتنافس بين المماليك:

استمرت مصر تحت الحكم العثماني ما يقرب من ثلاثة قرون "٢٨٨ سنة تقريبًا" (تتابع على مصر في هذه الفترة "١٣٦" من الولاة عاصروا "٢١" من السلاطين العثمانيين)[1]، وهو يعتبر عددًا كبيرًا من الولاة نسبيًا إذا قارناه بالفترة الزمنية وعدد السلاطين، وهو مؤشر لسياسة الدولة العثمانية في الحرص على عدم استقرار الوالي لفترة طويلة تمكنه من تحقيق أي طموحات شخصية إن وجدت، وقد أبقى السلطان العثماني على المماليك حتى تتعدد القوى المتنافسة في مصر فلا يستقر الأمر لأحد، وقد وضع سليم الأول قاعدة لنظام الحكم في مصر (وهي إيجاد سلطتين تتنازعان الحكم وتراقب كلتاهما الأخرى: الأولى سلطة نائب السلطان "الوالي"، والثانية سلطة رؤساء الجند، ووضع أيضًا نواة السلطة الثالثة وهي سلطة البكوات المماليك الذي أرجع إليهم حكم مديريات القطر المصري)[2]، ويؤكد المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي أن هذا النظام في الحكم لم يستمر كما وضعت قواعده من عهد الفتح العثماني (ولم يكن للديوان الكبير ولا للديوان الصغير عمل منظم في إدارة الحكومة،

---

١ موسوعة حكام مصر (د. ناصر الأنصاري) صفحة ١٠٤

٢ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج١ صفحة ٢٩

بل تركت البلاد تتقسمها رؤساء الجند والولاة، وانتهز المماليك فرصة استمرار التنازع والحروب بين الفريقين فأخذوا يعملون على الانفراد بالحكومة، فنظام الحكم السياسي في مصر قد تطور مع الزمن وانتهى التنافس بين السلطات الثلاث إلى تغلب البكوات المماليك، حدث هذا التطور في النصف الثاني من القرن السابع عشر فاستأثر المماليك بالنفوذ والحكم، وساعدهم على ذلك ما صارت إليه السلطنة العثمانية من الضعف في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر بسبب حروبها المتواصلة واختلال شئونها الداخلية وفساد نظام الحكم فيها، وزاد في نفوذهم كثرة تغيير الولاة العثمانيين وعزلهم)،[1] ومن هنا عاد نفوذ المماليك مرة أخرى في مصر ولكن ليست في صورة سلاطين ولكن في صورة بكوات، ومع الوقت ازداد نفوذ المماليك حتى أصبحوا قادرين على عزل الوالي العثماني والإرسال للسلطان بطلب تغييره حيث يقوم شخص يطلقون عليه الأودة باشا بالذهاب إلى الوالي في القلعة مقر الحكم ويقول له الكلمة الشهيرة (انزل يا باشا) ويتم تعيين قائمقام لحين حضور والٍ جديد، وأصبح منصب شيخ البلد هو أهم منصب في مصر والذي يشغله أحد أمراء المماليك (البكوات)، وأصبحوا يتنافسون فيما بينهم للوصول لهذا المنصب.

---

١ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج١ صفحة ٣٥

(قال الرحالة فانسليب يصف ما شاهده في مصر سنة ١٦٧٢ م من استئثار المماليك بالحكم: إن كلمة البكوات في الديوان كانت نافذة بحيث لم يكن الباشا "الوالي العثماني" يخالف لهم أمرًا وكانوا يملكون عزله).[١]

عوامل سقوط المماليك ارتبطت بعوامل سقوط الدولة العثمانية نفسها:

يمكن تقسيم تاريخ الدولة العثمانية كمعظم الدول إلى عصرين رئيسيين، عصر ازدهار وتقدم وحضارة وقوة، وعصر اضمحلال وتخلف وجمود وضعف، وقد بدأ هذا التحول تقريبًا بين العصر الأول والعصر الثاني بعد عهد السلطان سليمان القانوني،[٢] أي بعد فترة قصيرة من ضم مصر للدولة العثمانية، وإذا تأملنا معًا العصر الأول والعصر الثاني وعلاقته بمصر سنجد أن مصر إلى حد كبير لم تنعم بعصر ازدهار العثمانيين، بل كان انضمامها إليهم مع بداية عصر اضمحلالهم تقريبًا، وبعبارة أخرى لم تذق مصر حلاوة العثمانيين ولكنها تجرعت مرارتهم.

---

١ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج١ صفحة ٣٥، ٣٦

٢ (اتفق المؤرخون على أن عظمة الدولة العثمانية قد انتهت بوفاة السلطان العثماني سليمان القانوني عام ٩٧٤ هـ، وكانت مقدمات ضعف الدولة قد اتضحت في عهد السلطان سليمان) وكانت هزيمة العثمانيين في معركة ليبانتو عام ٩٧٩ هـ أزالت السيادة العثمانية عن البحر المتوسط (من كتاب الدولة العثمانية – عوامل النهوض وأسباب السقوط) (د. على الصلابي) صفحة ٦٣٥

قد تكون الأسباب مختلفة:

ربما تكون الأسباب التي أدت إلى سقوط الدولة العثمانية أسبابًا مختلفة عن أسباب سقوط الدول الإسلامية التي كانت قبلها، فبالرغم من أن هذه الدولة قد تم تأسيسها على أسس إسلامية أدت إلى قيامها بأعمال جليلة قدمتها للأمة الإسلامية (كحماية الأماكن المقدسة من مخططات الصليبية البرتغالية، ومناصرة أهالي الشمال الإفريقي ضد الحملات الصليبية الأسبانية وغيرها، وإيجاد وحدة طبيعية بين الولايات العربية، وإبعاد الزحف الاستعماري عن ديار الشام ومصر وغيرها من الأراضي الإسلامية، ومنع انتشار المذهب الاثن عشري الشيعي الرافضي إلى الولايات الإسلامية التابعة للدولة العثمانية، ومنع اليهود من استيطان فلسطين ودورها في نشر الإسلام في أوروبا)،[1] ويكفي هذه الدولة فخرًا أنها قضت تمامًا على العدو التقليدي والرئيسي للأمة الإسلامية وهي الدولة البيزنطية، وتم فتح القسطنطينية التي بشر رسول الله صلي الله عليه وسلم بفتحها حيث قال: "لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش"[2])[3] وبالرغم من كل هذه الإنجازات الرائعة التي حققتها الدولة العثمانية إلا أنها عندما سقطت كان لسقوطها أسباب مختلفة،

١ الدولة العثمانية (د. على الصلابي) صفحة ٦

٢ رواه أحمد في مسنده.

٣ الدولة العثمانية (د. على الصلابي) صفحة ١١٤

فمن السلبيات التي أدت إلى إضعاف الحكم لدي هذه الدولة (إهمال اللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم والحديث الشريف في آخر عهدها، وعدم الوعي الإسلامي الصحيح، وانحرافها عن شرع الله تعالى، وتأثرها بالدعوات التغريبية)،[1] وكل هذا بالطبع كان في عصر الاضمحلال الأخير لهذه الدولة الكبرى، وكل هذه الأمور قد وردت في كتاب الدكتور علي الصلابي الذي أوضح فيه عوامل النهوض وأسباب السقوط للدولة العثمانية (ويوضح للقارئ كيف وضعت حركة التنظيمات الدولة العثمانية رسميًا على طريق نهايتها كدولة إسلامية، فعلمنت القوانين ووضعت مؤسسات تعمل بقوانين وضعية وابتعدت الدولة عن التشريع الإسلامي في مجالات التجارة والسياسة والاقتصاد، وبذلك سحب من الدولة العثمانية شرعيتها من أنظار المسلمين، وكيف هيمن رجال التغريب على الدولة العثمانية في زمن السلطان عبد العزيز، وعندما تعرض لكثير من مخططاتهم عزلوه ثم قتلوه)[2]، (وكيف أصيبت العلوم الدينية في نهاية الدولة العثمانية بالجمود والتحجر، وكيف اهتم العلماء بالمختصرات والشروح والحواشي والتقريرات وتباعدوا عن روح الإسلام الحقيقية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ورفض كثير من العلماء فتح باب الاجتهاد)[3].

---

١ الدولة العثمانية (د. على الصلابي) صفحة ٦

٢ الدولة العثمانية (د. على الصلابي) صفحة ٧

٣ الدولة العثمانية (د. على الصلابي) صفحة ٨

ويوضح الكتاب أيضًا كيف (فقدت الأمة قدرتها على المقاومة والقضاء على أعدائها، وكيف استعمرت وغُزيت فكريًا نتيجة لفقدها لشروط التمكين وابتعادها عن أسبابه المادية والمعنوية وجهلها بسنة الله في نهوض الأمم وسقوطها).

المرحلة الأخيرة للمماليك:

وهكذا شمل الضعف والتخلف والتراجع الحضاري كل مكونات الدولة العثمانية ومن بينها المماليك بالطبع، حتى صار المماليك في حالة من الجهل بما يدور في العالم حيث نهضت العديد من الدول وتقدمت في جميع المجالات وازدهرت الحضارة الأوربية وتخلفت مصر ودخلت في نفق مظلم ولم تنتبه إلا عندما وصل جيش نابليون يطرق أبوابها بعنف، ولم تتمكن الدولة العثمانية من طرد الحملة الفرنسية من مصر إلا بمساعدة الإنجليز، ثم وصل بعد ذلك محمد علي باشا للحكم ليقضي نهائيًا على البقية الباقية من المماليك في مذبحة القلعة الشهيرة، ولأن النهاية كانت على يد محمد علي فتجدر الإشارة إليه وإلى علاقته بالمماليك وكيف وصل للسلطة وتخلص منهم على هذا النحو.

عندما تولي محمد على باشا حكم مصر:

خمس سنوات تقريبًا (١٨٠١-١٨٠٥م) هي الفترة بين جلاء الحملة الفرنسية وبين تولي محمد علي باشا حكم مصر، وكانت أحوال مصر خلال هذه السنوات الخمسة في غاية الاضطراب، فقد تصارعت عدة قوى على الحكم، والطريف أن محمد على شخصيًا كان وراء هذه الاضطرابات والعقل المدبر لها أو على الأقل لمعظمها، فكان يستخدم جميع الوسائل المتاحة من قوة ودهاء ليضمن عدم سيطرة أحد الفرق المتصارعة وعدم استقرار الأمور لأي فريق منهم في مصر، كما كان يتقرب من الزعامة الشعبية ويراهن عليها، فالشعب هو القوة الباقية التي يمكن أن تمنحه حكم مصر وسط كل هذه الصراعات، وكانت الحملة الفرنسية قد أشعلت روح الجهاد في الشعب المصري وتسببت في إفاقته من سباته العميق ربما دون أن تقصد، ولكن من هو محمد علي؟ وما هي الأساليب التي استخدمها ليصل إلى حكم مصر؟ وما الذي دار خلال هذه السنوات الخمس؟

ولـد محمـد علي سـنة ١٧٦٩ م١ ونشـأ بمدينـة قولـة مـن ثغـور مقـدونيا، وكـان منـذ صـغره يبـدو عليـه النبـوغ والجـرأة واقتحـام المخـاطر وروح المغـامرة منـذ التحـق بـالجيش، وكـان يميـل إلى حـل المواقـف والمشكلات الصعبة بطرق غير تقليدية تعتمد على الذكاء الحـاد وسـرعة البديهة وانتهاز الفرص المناسبة بغض النظر عن أي اعتبارات أخرى، ومارس محمد علي لفترة تجارة الدخان مما جعله يكتسـب خبرة كبيرة في المسـائل التجاريـة والاقتصـادية، وكـان لا يعرف القراءة والكتابة.

ثـم تـرك محمـد علي تجـارة الـدخان وعـاد مـرة أخـرى إلى الحيـاة العسـكرية، وعنـدما قـام السـلطان العثمـاني بتجميـع جـيش كبير لقتـال الحملـة الفرنسـية في مصـر طلـب مـن كـل حـاكم ولايـة أن يرسـل قـوة لتنضـم إلى هـذا الجـيش (صـدر الأمـر إلى متصـرف قولـة بتقديم ما لديه من الجنود، فألف كتيبة من ثلثمائة جندي انضم محمـد علي في سـلكها)،٢ ووصـلت هـذه القـوة مـع مثيلاتهـا تحـت قيادة حسين قبطان باشا إلى أبي قير في شهر مارس سنة ١٨٠١ م على متن السفن العثمانية، ومنذ ذلك التاريخ شهد محمد علي كل الأحداث وحتى جلاء الحملة الفرنسية، وكان محمد علي من ذلك الطراز من القادة الذين عرفوا إمكانيات مصر جيدًا وعلى حد تعبير الأسـتاذ جمـال بـدوي عنهم (وضـعوا أيـديهم على مفتـاح شخصـيتها فباحت لهم بسرها وجعلت منهم حكامًا يلهج بذكرهم التاريخ).[٣]

١ تاريخ الحركة القومية ج٢ (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٢٥٦ [وهذه السنة ولد بها نابليون أيضًا]

٢ تاريخ الحركة القومية ج٢ (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٢٥٨

٣ محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ٣٣

وعندما تقرأ عن الأحداث التي مرت بها مصر خلال السنوات الخمس التي أعقبت جلاء الفرنسيين عن مصر تشعر أن محمد علي كان يلعب بالنار في جرأة وشجاعة يحسد عليها، وكان الرجل الثاني في القوة الألبانية الموجودة بمصر ضمن قوات الجيش العثماني.

وقد قام السلطان العثماني بتعيين عدة ولاة على مصر خلال هذه الفترة واحدًا تلو الآخر، ولكن لم يصمد أحد منهم وسط الظروف التي كانت تحيط به، وكان أول والٍ بعد جلاء الحملة الفرنسية مباشرة هو خسرو باشا، ثم أحمد باشا، ثم علي باشا الجزائرلي، أما آخر والٍ فهو خورشيد باشا، وكل هؤلاء لم يتمكنوا من فرض سيطرتهم على مصر، وقد يكون السبب في ذلك هو محمد علي نفسه.

فيقول عن هذه الفترة المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي (كان محمد علي هو الرأس المدبر للحملة على خسرو باشا ثم على أحمد باشا ثم على علي باشا الجزائرلي، ولكنه ظل بعيدًا عن الميدان وترك عثمان بك البرديسي "من زعماء المماليك" يأتمر بعلي باشا الجزائرلي ويتولى أمر قتله ليحتمل تبعة هذا العصيان الخطير في نظر الباب العالي إذا ما جاء وقت الحساب، والواقع أن مقتل الجزائرلي كان فيه القضاء على مظهر السلطة العثمانية في مصر، وبذلك تخلص محمد علي من إحدى القوتين اللتين كان يعمل على سحقهما، ولم يبق أمامه إلا قوة المماليك،

فبدأ العمل على التخلص منها، وتمهيدًا لهذه الغاية ترك لزعماء المماليك السلطة ظاهرًا حتى يحمّلهم تبعة الحكم ومساوئه ويجعلهم هدفًا لسخط الشعب)، [1]

(كانت الفرصة سانحة ليحقق محمد علي آماله ويتولى سلطة الحكم في مصر، فالمماليك قد دالت دولتهم، والقوة التركية قد تلاشت من البلاد والوالي التركي في القلعة سجين، وليس ثمة قوة حربية سوى الألبانيين "الأرناؤوط" الذين تحت قيادته، ولكن محمد علي كان طويل الأناة بعيد النظر، فرأى ألا يصل إلى سلطة الحكم بقوة الجند، وآثر أن ينتظر حتى يصل إلى تلك الغاية بإرادة الشعب، وبذلك يبرهن أنه لم يناوئ المماليك لمطامع شخصية بل لمحض الصالح العام فيزداد الشعب تعلقًا به). [2]

(وصل خورشيد باشا إلى بولاق في أواخر مارس سنة ١٨٠٤ وهو خامس من تقلد ولاية مصر، فأولهم خسرو باشا وقد خلع، ثم طاهر باشا وقد قتِل، ثم أحمد باشا وقد طُرد، ثم علي باشا الجزائرلي وقد قتل، ثم خورشيد باشا وفي عهده قامت الثورة). [3]

(وأسقط في أيدي المماليك ورأوا أنفسهم حيال قوتين: ثورة الأهالي من جهة وجنود محمد علي من جهة أخرى، فلم يجدوا سبيلاً للنجاة سوى الفرار من القاهرة). [4]

---

١ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج٢ صفحة ٢٨٥

٢ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٢٩٣

٣ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٢٩٤

٤ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٢٩٣

(وكان خورشيد باشا سيء الرأي فاسد التدبير ميالاً إلى الظلم غير مكترث بميول الشعب، معتمدًا على القوة الغشوم، تعددت مظالمه فتدخل العلماء غير مرة لرفعها عن الناس – ففي عهده قوي سلطان العلماء وبلغ نفوذهم أقصى مداه حتى أثاروا الشعب واقتلعوا بقوته الوالي عن كرسي ولايته وأجلسوا محمد علي مكانه ولم يسبق لهم هذا النفوذ من قبل)،[1] وهكذا ثار الشعب على الوالي خورشيد باشا بالقوة، وكان زعيم الثورة وقائدها هو السيد عمر مكرم الذي أعطى السلطة لمحمد علي بعد أن أخذ منه العهود والمواثيق أن يعدل بين الناس وأن يحكم البلاد بما يرضي الله، وأرسل الشعب المصري إلى السلطان العثماني يطلب منه تعيين محمد علي واليًا على مصر، واستجاب السلطان لرغبة الشعب وأرسل فرمانًا بتولية محمد علي حكم مصر، ولم تتوقف الحرب بين الشعب والوالي إلا عند وصول هذا الفرمان من الأستانة يوم ٩ يوليو سنة ١٨٠٥ م[2] ونزل خورشيد باشا من القلعة، وهو يعتبر آخر والٍ تم تعيينه بإرادة السلطان العثماني قبل تولي محمد علي، أما محمد على فكان تعيينه بإرادة الشعب، وقبل كل هذا وبعده إرادة المولى عز وجل.

١ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٢٩٦

٢ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٣١٤

محمد علي يهادن المماليك:

كان المماليك يسيطرون على صعيد مصر، وكانت الحرب تدور بينهم وبين قوات محمد علي، ومن ناحية أخرى حاول الإنجليز بالتنسيق مع الدولة العثمانية إعادة المماليك للحكم وتولية محمد بك الألفي الذي كان قد عاد إلى مصر وسيطر على الفيوم، وبالفعل وصل أسطول عثماني إلى الإسكندرية في أول يوليو سنة ١٨٠٦ ومعه والٍ جديد على مصر اسمه موسى باشا ليقوم بالدور الذي كان يقوم به الولاة قبل الحملة الفرنسية أيام حكم زعيم المماليك كشيخ للبلد، وعند حدوث هذه المشكلة لجأ محمد علي إلى زعماء الشعب مرة أخرى، وبدون الدخول في التفاصيل استطاع زعماء الشعب إلغاء قرار السلطان وتثبيت محمد علي في حكم مصر، وتفرغ محمد علي للمماليك حيث لجأ معهم إلى أسلوبه الذي برع فيه وهو الدهاء والحيلة (فأخذ يعمل على فصم عراهم مستخدمًا التنافس القديم بين زعمائهم)،[1] واستمرت المشاكل والحروب والحيل والمكر بين محمد علي والمماليك، وكان أخطرهم عثمان بك البرديسي ومحمد بك الألفي، وكان الألفي قد حاصر دمنهور واقترب من رشيد والإسكندرية في انتظار وصول الحملة الإنجليزية لتتعاون معه كي يصل لحكم مصر والتي جاءت بالفعل سنة ١٨٠٧م (حملة فريزر) ولكنها وجدته قد مات وفشلت الحملة وتم مقاومتها ببسالة لا نظير لها،

---

١ عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٤٣

وكان الألفي قد مات بعد موت عثمان بك البرديسي بحوالي شهرين، وإليك بعض ما رواه الجبرتي عندما وصف موت الألفي (من تمام سعد محمد علي باشا الدنيوي حتى أنه قال في مجلس خاصته "الآن ملكت مصر"، ولما مات الألفي ارتحلت أجناده ومماليكه وأمراؤه وارتفعوا ناحية قبلي، فسبحان الحي الذي لا يموت)،[1] وكان محمد الألفي هو الوحيد تقريبًا الذي لم يجرؤ محمد علي على مواجهته عسكريًا في ميادين القتال، وسبب سعادة محمد علي بموته أن من تبقى من أمراء وزعماء المماليك لم يكن على نفس مستوى الألفي، وكان من السهل على محمد علي أن يستقطبهم لصالحه بإعطاء كل أمير منهم الأمان على نفسه وعلى ممتلكاته وأن يسكن معززًا مكرمًا في العاصمة وله مكانته من التقدير والاحترام طالما أنه لا يسعى للوصول للحكم ولا يبغي سوى الحياة الكريمة الآمنة.

---

١ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (الجبرتي) ج ٧ صفحة ٣٨

مذبحة القلعة

بعد أن كسر محمد علي شوكة المشايخ وقام بنفي كبيرهم السيد عمر مكرم خارج القاهرة بعيدًا عن الأحداث قرر أن يتخلص من الأمراء والقادة المماليك الذين أعطاهم الأمان وجعلهم يتركون ساحات القتال وسكنوا بالقاهرة وعاشوا حياة كريمة غير متطلعين للحكم، فقام بدعوتهم لحضور احتفال ضخم وفخم بالقلعة لوداع ابنه أحمد طوسون باشا الذي كان متوجهًا على رأس جيش لمهمة خارج البلاد، وكان يوم الجمعة أول مارس سنة ١٨١١م١ (وقبل ابتداء الحفلة دخل البكوات المماليك على محمد علي باشا في قاعة الاستقبال الكبرى، فتلقاهم بالبشر والحفاوة، وقُدمت لهم القهوة، وشكرهم الباشا على إجابتهم دعوته، وألمع إلى ما ينال ابنه من التكريم إذا ما ساروا معه في موكبه، فأجابوه بالشكر، وعندئذ نهض المماليك وساروا إلى حيث يأخذون مكانهم في الموكب الفخم)،٢ وكان الموكب يتواجد به مجموعات من الجنود تسير أمام وخلف مجموعة المماليك، وكان يمر بمنطقة شديدة الضيق بالقلعة وفي نهايتها باب خرج منه مقدمة الموكب، ثم تم إغلاقه على المماليك والجنود، وانهال عليهم ضرب النار من أعلى الأماكن المجاورة لهذا الممر الضيق.

١ عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١٠٨

٢ عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١٠٩

(لم يستطع المماليك دفاعًا عن أنفسهم ولم يكن لديهم الوقت ولا القدرة على الحركة أو الرجوع القهقرى أو النزول عن جيادهم لضيق المكان الذي حصروا فيه، ولأنهم جاءوا الاحتفال من غير بنادق ولا رصاص، ولم يكونوا يحملون سوى سيوفهم، وهيهات أن تعمل السيوف في ذلك الموقف شيئًا فانصب عليهم الرصاص وحصدهم حصدًا، وجاءهم الموت من كل مكان)١، (وهكذا دخل القلعة في صبيحة ذلك اليوم أربعمائة وسبعون من المماليك وأتباعهم قتلوا جميعًا، ولم ينج منهم إلا واحد اسمه أمين بك، فإنه كان في مؤخرة الصفوف)،٢ وقفز بجواده من فوق سور القلعة، وتلقى الجواد الصدمة ونجا هو، وفر متنكرًا إلى أن وصل سوريا فيما بعد، وكانت المذبحة مؤامرة محكمة من محمد علي استطاع أن يقتل فيها من لم يستطع أن يقتله في ساحات القتال حيث الأماكن المخصصة للقتل الشريف.

أما ما فعله الباشا فهو غدر بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ، وقد علق المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي على هذه المذبحة فكتب الآتي:

١ عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١١٠

٢ عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١١١

(تلك هي الواقعة الشهيرة بمذبحة القلعة، ونحن هنا لا نريد أن ندافع عن المماليك، ولكن مهما بلغت سيئاتهم فإن القضاء عليهم بوسيلة الغدر أمر تأباه الإنسانية، ولو أن محمد علي باشا استمر في محاربتهم وجهًا لوجه حتى تخلص منهم في ميادين القتال لكان ذلك خيرًا له ولسمعته)[1]، ويقول المسيو جومار، وهو الذي جعله محمد علي باشا مديرًا لأول بعثة مدرسية مصرية في فرنسا (لو أمكن محو تلك الصحيفة الدموية من تاريخ مصر لما صار محمد علي هدفًا لأحكام التاريخ القاسية)، ويضيف الرافعي فيقول: ومن جهة أخرى فإن الفتك بالمماليك على هذه الصورة الرهيبة قد كان له أثر عميق في حالة الشعب النفسية؛ لأن مذبحة القلعة أدخلت الرعب في قلوب الناس، وكان من نتائجها أن استولت الرهبة على القلوب فلم يعد ممكنًا إلى زمن طويل أن تعود الشجاعة والطمأنينة إلى نفوس الناس).[2]

١ عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١١٤

٢ عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١١٤صفحة ١١٥

عودة إلى موضوع البحث:

وهكذا عزيزي القارئ استعرضنا معًا أحوال المماليك وأحوال مصر بشكل عام منذ ظهورهم لأول مرة على مسرح الأحداث في مصر، وأنواعهم وإنجازاتهم وأبرز الأحداث التي عاصروها، والمراحل التي مروا بها إلى أن كانت نهايتهم في مذبحة القلعة، وبالتالي يمكننا الآن أن نحاول معرفة طبيعة صراعاتهم، وكيف تزامنت مع ما حققوه من إنجازات خاصة في عصورهم الأولى التي كانت أزهى عصورهم وهو موضوع هذا البحث، وسوف نتناول في الفصل القادم إن شاء الله أسلوب تداول السلطة في العصر المملوكي.



أسلوب تداول السلطة في العصر المملوكي

وصول المماليك للسلطة لأول مرة بعد معركة المنصورة:

بعد وفاة الملك الصالح وانتهاء معركة المنصورة ثم مقتل الملك توران شاه بن الملك الصالح لم يجرؤ أحد من أمراء المماليك على أن يعلن نفسه سلطانًا؛ نظرًا لأن شرعية الحكم في ذلك الوقت كانت لسلاطين بني أيوب، وشرعية الحكم لا بد أن تأتي من الخليفة العباسي في ذلك الوقت، فلا يمكن آنذاك أن يتولى أي شخص مقاليد السلطة في أي بقعة من بقاع العالم الإسلامي إلا بتقليد من الخليفة شخصيًا وحتى وإن كان هذا إجراءً رمزيًا، إلا أنه ضروري لإضفاء الشرعية، وحاجة المماليك تحديدًا إلى هذه الشرعية تفوق حاجة غيرهم؛ لأنهم يعرفون جيدًا أنهم عبيد منذ البداية ولا تصح لهم ولاية، لذلك قرروا بشكل مبدئي أن تبقى السلطة في الأسرة الأيوبية مؤقتًا لحين حل هذه المعضلة، فاتفقوا على أن تتولى شجرة الدر زوجة الملك الصالح مقاليد السلطة، إلى أن أرسل لهم الخليفة العباسي خطابًا ينكر عليهم تولية امرأة الحكم، فكان هذا اعترافًا ضمنيًا من الخليفة بانتقال السلطة لأحد أمراء المماليك (وقد كان التقليد المتبع في عهد الأيوبيين أن السلطان لا تصبح ولايته شرعية إلا إذا اعترف به الخليفة العباسي وأرسل إليه التقليد بذلك،

ولذلك أسرع أمراء المماليك فولوا أحدهم - وهو الأمير عز الدين أيبك - السلطنة ولُقب بالملك المعز وتزوج من شجرة الدر[1] التي خلعت نفسها من السلطنة بعد أن تولتها ثمانين يومًا)[2]، وحتى لا تغضب الأسرة الأيوبية بالشام قرر المماليك أن يشارك الملك عز الدين أيبك طفل من سلالة الأيوبيين هو الأشرف موسى حفيد الملك الكامل محمد وكان عمره حوالي ست سنوات، ولكن الأيوبيين في الشام لم يقبلوا بهذا الوضع، ودارت معركة شرسة بينهم وبين المماليك انتهت بانتصار المماليك،[3] ونتيجة لهذه المعركة قام المماليك بخلع الملك الطفل من السلطنة، وبهذا تم الاستقلال المملوكي التام بمصر، وأحس الخليفة العباسي المستعصم بالله أن الأمور ستتحول إلى قتال بين المسلمين بينما الخطر المغولي على الأبواب، فقام بحسم الخلاف بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر وأرسل رسولاً إلى كل منهم كمبعوث للسلام (ونجح رسول الخليفة في مهمته وتقررت قواعد الصلح بين الطرفين على أن تكون مصر والجزء الجنوبي من فلسطين بما فيه غزة والقدس وبلاد الساحل للمعز أيبك،

١ وهذا يذكرنا بالعصر الفرعوني عندما ينتهي نسل الذكور من الأسرة الفرعونية يقوم أحد القادة بالزواج من إحدى أميرات الأسرة ويؤسس أسرة جديدة حتى تجري دماء الفراعنة في نسله، فشرعية الحكم في عهد الفراعنة مرتبطة بالدماء الملكية، ولكن مشكلة المماليك أن ليس لديهم دماء ملكية، فالجميع متساوون في النشأة والبيئة.

٢ تاريخ مصر الإسلامية (د. جمال الدين الشيال) ج٢ صفحة ١١٥

٣ تاريخ مصر الإسلامية (د. جمال الدين الشيال) ج٢ صفحة ١١٦

وأن تكون الأجزاء الواقعة شمال هذه المنطقة لأصحابها من البيت الأيوبي، وأن يطلق المعز سراح من وقع في أسره)،[1] وبهذا تم إضفاء الشرعية على الملك المعز عز الدين أيبك وأصبح يتبع الخليفة مباشرةً.

عندما يتساوى الجميع فمن يكون له الحق في العرش؟

في الحقيقة إن هذا السؤال هو أساس جميع الصراعات بين أمراء المماليك، وهو سر التنافس على السلطة، فإذا كان أحد الأمراء يجلس على عرش مصر ويرى أمير آخر أنه الأحق بذلك يبدأ الصراع بينهما على السلطة، ولكنه صراع مرير ومغامرة كبرى ولا يتدخل فيها الخليفة العباسي، فمصر منذ عهد أحمد بن طولون ثم الإخشيد ثم الفاطميين ثم الأيوبيين مستقلة بطريقة أو أخرى عن الخلافة العباسية، وارتباطها بالخلافة ارتباط رمزي لا يعني التبعية المطلقة كما كانت قبل عصر الدولة الطولونية، أما فترة الحكم الفاطمي لمصر فقد كانت مستقلة عن العباسيين تمامًا لاختلاف المذهب، بل كانوا في حالة عداء دائم وحروب مستمرة، فإذا استثنينا الفاطميين فإن باقي الدول التي تأسست في مصر سواء طولونية أو إخشيدية أو أيوبية ثم مملوكية بعد ذلك، كلها كانت مستقلة ولكنها تتبع المذهب السني الذي كان يمثله الخليفة العباسي،

---

١ تاريخ مصر الإسلامية (د. جمال الدين الشيال) ج٢ صفحة ١١٦

ويوضح الدكتور محمود الحويري مفهوم هذا النوع من الاستقلال فيقول (الواقع أن الاستقلال في المصطلح الإسلامي يختلف عما نفهمه في الوقت الحاضر من تحقيق السيادة الخارجية، بمعنى ألا يكون على الدولة نفوذ غير نفوذ أبنائها، وأن هذا الاستقلال لا يشوبه أي تدخل في شئون الدولة الداخلية أو أي قيد على مكانتها في المجتمع الدولي، أما في العصور الوسطى، فإن العالم الإسلامي كان يؤلف وحدة روحية ووحدة سياسية برئاسة الخليفة إمام المسلمين، وكان الناس لا يعترفون بحكم لا يعترف به خليفة، ولا ينظرون إلى من يغفل أمر الخلافة إلا نظرتهم إلى الخوارج الذين يشذون عن رأي الجماعة، وللوالي أن يعطي نفسه من السلطات الداخلية ما طاب له، وله أن يورّث الحكم لأولاده على الصورة التي يراها، وليس عليه إلا أن يعترف بالخليفة إمامًا للمسلمين ويعترف به الخليفة حاكمًا شرعيًا على البلاد التي يحوزها، ومن هنا ينبغي أن نضع في الاعتبار أنه لم يكن من الممكن أن يستقل أحمد بن طولون بمصر نهائيًا عن الخلافة العباسية، وبمعنى آخر كان ظهور الدولة الطولونية في مصر يمثل انتقالاً من عصر التبعية المطلقة إلى عصر الاستقلال بالصورة التي عرفناها)[1]، (ومن ثم لم يعد للخليفة العباسي أي نفوذ سياسي في مصر فيما عدا أنها اكتفت بذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة، كما دأبت مصر على إرسال جزء من الخراج إلى بغداد عن طواعية،

١ مصر في العصور الوسطى (د. محمود الحويري) صفحة ١٠٣، ١٠٤

تعبيرًا عـن انتمائها الـديني للإسـلام الـذي يجسـده الخليفـة مـن ناحيـة، وكـدليل ارتبـاط تقـوم عليـه وحـدة المسـلمين في مشـارق الأرض ومغاربها، كانت جميع الـدول المسـتقلة في العـالم الإسـلامي تحرص عليه من ناحية أخرى).[1]

أهم ما يميز الصراع بين أمراء المماليك على السلطة:

على الـرغم مـن أن الصـراع على السـلطة في حـد ذاتـه شيء بشـع ومكلـف للأمـوال والأرواح ويـؤثر على حالـة الـبلاد والعبـاد، إلا أن الصراع بين المماليك كانت له سمات خاصة وعجيبة، منها أنه كان داخـل مصـر أو داخـل الدولـة المملوكيـة عمومًـا ولا يـتم تدويلـه بإدخال عناصر من خارج الدولة لمساعدة أحد الأمراء للوصول إلى السلطة، اللهم إلا إذا استعان بعض الأمراء ببعض شيوخ العرب والبـدو أحيانًـا في بعـض المعـارك، ولكـنهم في النهايـة مقـاتلون لا يخضعون لسلطان دولـة مـن الـدول، وبالتـالي لـم يـتم التـدخل في شئون مصـر الداخليـة مـن دول أخـرى نتيجـة لهـذا الصـراع، أمـا السـمة الثانيـة فـإن الصـراع ينتهي بمجـرد اختفـاء أحـد الأمـراء المتنافسـين على السـلطة سـواء بالقتـل أو السـجن أو النفـي أو التنـازل، وبالتـالي لا يسـتمر الصـراع بواسـطة أنصـاره بعـد اختفـائـه، وهذا يحقن الدماء ويهدئ الأمور.

---

١ مصر في العصور الوسطى (د. محمود الحويري) صفحة ١٠٤

حتى أنك إذا قرأت عن أحد هذه الصراعات في بعض الكتب وتابعت باهتمام أعمال القتل والنهب والسلب والجرائم التي ترتكب خلال هذا الصراع قد تتمنى أن يتم التخلص بسرعة من أحد الأميرين المتنافسين حتى تهدأ الأمور، فكل أمير منهم يلتف حوله أعداد ضخمة من المماليك ويقاتلون بشراسة، وبمجرد موته ينتهي كل شيء بشكل يدعو للدهشة، كما يصفح الأمير المنتصر عنهم وتنتهي الفتنة، أما السمة الثالثة من سمات هذا الصراع فابتعاد عامة الشعب عنه وعدم إقحامهم فيه إلا في حالات نادرة، وكان كل أمير حريصًا على رضا العامة عنه ليدعموه بالدعاء له بالنصر.

كيف كانت تنتقل السلطة من سلطان إلى آخر في الأحوال العادية؟

كل ما سبق لا يعني أن السلطة كانت تنتقل دائمًا بعد صراعات وإراقة للدماء خلال العصر المملوكي، فهذا هو الاستثناء حتى لو حدث كثيرًا، ولكن كانت بالتأكيد هناك قاعدة سلمية لتداول السلطة في العصر المملوكي وكلما اختلت يحدث الصراع، وهذه القاعدة كانت تعتمد بشكل عام على نظام الأقدمية، فقد كان المماليك يحترمون الأقدمية جدًا، فهناك أمير كبير وهناك أمير صغير، وهناك من تولى وظائف عديدة وخاض معارك طاحنة وهناك من لم يمر بعد بكل هذه الأمور، وبالتالي كانت القاعدة العامة هي احترام مكانة وأقدمية كبار الأمراء، ولم ينجح نظام توريث الحكم في عهد المماليك بشكل واضح

(ويرجع السبب في عدم نجاح نظام الوراثة الشرعية عند المماليك إلى أنهم كانوا جنودًا محاربين نشأوا نشأة واحدة وربوا تربية واحدة متجانسة، فهم قوم قد انقطعت صلاتهم بأسراتهم منذ اشتروا في أسواق الرقيق أو أسِروا في ميادين الحروب، فضعفت عندهم مع الزمن معاني الصلات الأسرية وقويت عندهم في نفس الوقت معاني صلات أخرى كان لها شأن كبير في حياتهم، فكان يصعب على المماليك دائمًا أن يلي السلطنة ابن سلطان سابق لأنه لم ينشأ نشأتهم ولم يربّ تربيتهم، وليس بينهم من العلاقات ما يلزمهم بالولاء له، فكانوا في العادة يقبلون سلطنة هذا الابن مؤقتًا احترامًا لما أخذ عليهم من مواثيق وأيمان إلى أن تنتهي المشاورات بين كبراء أمرائهم ويتفقوا على تولية أحدهم، وكان الاختيار يقع عادة على أقرب الأمراء إلى السلطان السابق، وأقرب الأمراء إلى السلطان السابق كان في العادة أقدمهم، والأخذ بنظام الأقدمية من المبادئ المهمة التي كان يحترمها ويعمل بها المماليك).[1] ولم يكن عزل ابن الملك السابق معناه قتله، ولكنهم كانوا يكتفون بعزله فقط أو إبعاده إلى مدينة بعيدة عن العاصمة معززًا مكرمًا لأن كل منهم كان يشعر بأن هذا سيكون مصير أولاده من بعده، وعلى الرغم من نجاح بعض سلاطين المماليك في توريث الحكم لأولادهم وذلك بإعدادهم إعدادًا خاصًا لذلك، إلا أن هذه المحاولات لم تكن القاعدة العامة في انتقال السلطة في عصر المماليك بشكل عام، وجدير بالذكر أن أشهر من قام بتوريث الحكم لأولاده هو السلطان المنصور قلاوون.

---

١ تاريخ مصر الإسلامية (د. جمال الدين الشيال) ج٢ صفحة ١١٩

علاقة الإنجازات بالأفضلية أثناء الصراع:

عندما يعتبر أحد الأمراء أنه أفضل من غيره وأحق بالعرش من الجميع فلابد أن يثبت ذلك بتحقيق العديد من الإنجازات والانتصارات، فإذا كان سلطانًا بالفعل وقامت عليه حركة عصيان ونافسه أحد الأمراء ليجلس مكانه، أو شعر بمجرد وجود آراء حول حكمه للبلاد قد تثير الفتن والاضطرابات وتشجع من له طموح في منافسته، عندئذ يحاول أن يثبت للجميع أنه الأفضل، فيكثر من تحقيق الإنجازات في جميع المجالات سواء اقتصادية أو معمارية، كما يشن الحروب على أعداء الأمة ويحاول تحقيق النصر والمجد، وكلما زادت حدة الصراعات تزيد الإنجازات على ما يبدو، فهذه الإنجازات لها العديد من الفوائد بالنسبة له، فهي أولاً تجعل عامة الشعب في حالة انتعاش اقتصادي وتتوفر السلع بأسعار زهيدة مما يجعل الناس تتمسك به وتدعو له بالنصر، أما ثاني هذه الفوائد فهو أن أنصاره من المماليك والجنود الذين حوله ترتفع روحهم المعنوية بشكل كبير وتزداد شراستهم في القتال للزود عنه واستقرار عرشه، كما أن كل ما يحققه من انتصارات وأمجاد ومكاسب يخفض الروح المعنوية لأنصار خصمه ولا يجد من يسانده إلا لمصالح شخصية، فالإنجازات تجعل طبيعة الصراع للمصلحة العامة وليس للمصلحة الشخصية، ومن هنا قد يكون هذا هو السبب في تزامن حدوث إنجازات مع وجود صراعات،

بل إن الصراعات التي لم تنتهِ طوال عصر المماليك جعلت معها إنجازات لم تنتهِ أيضًا إلا بانتهاء هذا العصر.

وكان الأمير الذي يريد أن يجلس على العرش يتخلص من خصومه ويعتبر نفسه الأقوى والأصلح للقيادة، وأن القضاء على الخصوم بالقتل أو النفي كان يعتبره من متطلبات الأمن القومي والاستقرار السياسي، فقد يتحول بسهولة جدًا اختلاف الآراء بين الأمراء إلى قتال شرس وعنيف وما يشبه الحروب الأهلية[1] التي تدمر كل شيء؛ لأن كل أمير توجد تحت سيطرته قوة لا يستهان بها طوع أمره، وبالتالي لا بد من أمير قوي يسيطر على الجميع ويضمن ولاءهم ولو بالقوة والعنف في البداية، وبمجرد أن يجلس على العرش يبدأ في تحقيق العديد من الإصلاحات والانتصارات والأمجاد ليؤكد لنفسه وللأمة كلها أنه كان على حق عندما أصر على تولي السلطة والتخلص من الخصوم.

---

١ كانت غالبًا تحدث الصراعات على الحكم عندما يفشل كبار الأمراء في الاتفاق على سلطان محدد منهم ليحكم، ولم يكن مقبولاً لديهم أن يحكم ابن السلطان الراحل لأنه لم ينشأ النشأة التي تعودوا عليها، فهو ليس واحد منهم كما ذكرنا، فكان يتولى الحكم لحين الاتفاق على الملك الجديد، وإذا لم يحدث هذا الاتفاق يبدأ الصراع على الحكم بأشكاله المتعددة، ودائمًا وفي نهاية الأمر يصل إلى الحكم من أراد المولى عز وجل له الحكم، فالملك بيد الله يؤتيه من يشاء.

الصراع على السلطة مغامرة كبرى:

يقول أبو فراس الحمداني في قصيدته الشهيرة:

وَنَحْنُ أُنَاسٌ، لا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا، لَنَا الصّدرُ، دُونَ العالَمينَ، أو القَبرُ
تَهُونُ عَلَيْنَا في المَعَالي نُفُوسُنَا، ومنْ خطبَ الحسناءَ لمْ يُغلها المهرُ

العرش أو القبر، يا لها من مغامرة كبرى غير مأمونة العواقب! فهل تستحق؟ فمن يتأمل هذا المعنى لا بد أن يفكر ألف مرة قبل أن يتخذ قرار المنافسة على العرش، ومن المؤكد أنه قرار صعب يحتاج إلى جرأة وقوة عزيمة وإرادة صلبة؛ فالبقاء للأقوى دائمًا، فهي ليست نزهة خلوية أو مسابقة رياضية، فالخسارة فيها تعني الموت، وقد يسبق هذا الموت ألوان من العذاب، فالحبس وحده في انتظار القتل يقتل المحبوس كل لحظة أثناء حبسه، وبالتالي فالقرار صعب ومصيري، فما الذي يستحق كل هذا العناء، وفي هذا الصراع قد تكون جميع الأساليب مشروعة، فالمسألة حياة أو موت، فمن الممكن استخدام الخداع والمكر وبالتالي تنعدم الثقة بالآخرين، ويرتاب الجميع في سلوك الجميع، فقد تأتي الطعنة من الخلف ومن أقرب الناس إليك، وقد يتم القتل لمجرد استشعار نية القتل من الطرف الآخر، فلا يوجد وقت للتحقق من ذلك أو التفكير في وسائل أخرى، إن كل هذا يجعلك تشعر بالإشفاق على هؤلاء المساكين الذين يدخلون في هذا الصراع،

فالمماليك حياتهم عبارة عن سلسلة من المعارك، ومنازلهم هي صهوات جيادهم، وصوت ضرب السيوف هو الصوت الذي يطربهم، ولمعانها يثيرهم كما أنشد عنترة بن شداد من قبل:

وَلَقَد ذَكَرتُكِ والرِّماحُ نَواهِلٌ   مِنّي وبِيضُ الهِندِ تَقطُرُ مِن دَمي

فَوَدِدتُ تَقبيلَ السُيوفِ لأَنَّها   لَمَعَت كَبارِقِ ثَغرِكِ المُتَبَسِّمِ

❊ ❊ ❊




دار إضافة
للنشر والتوزيع
الإسكندرية
ج . م . ع
www.Idafabooks.com